بسم الله الرحمن الرحيم

الحب عند الفقهاء

عرض ودراسة وتحليل

دكتور

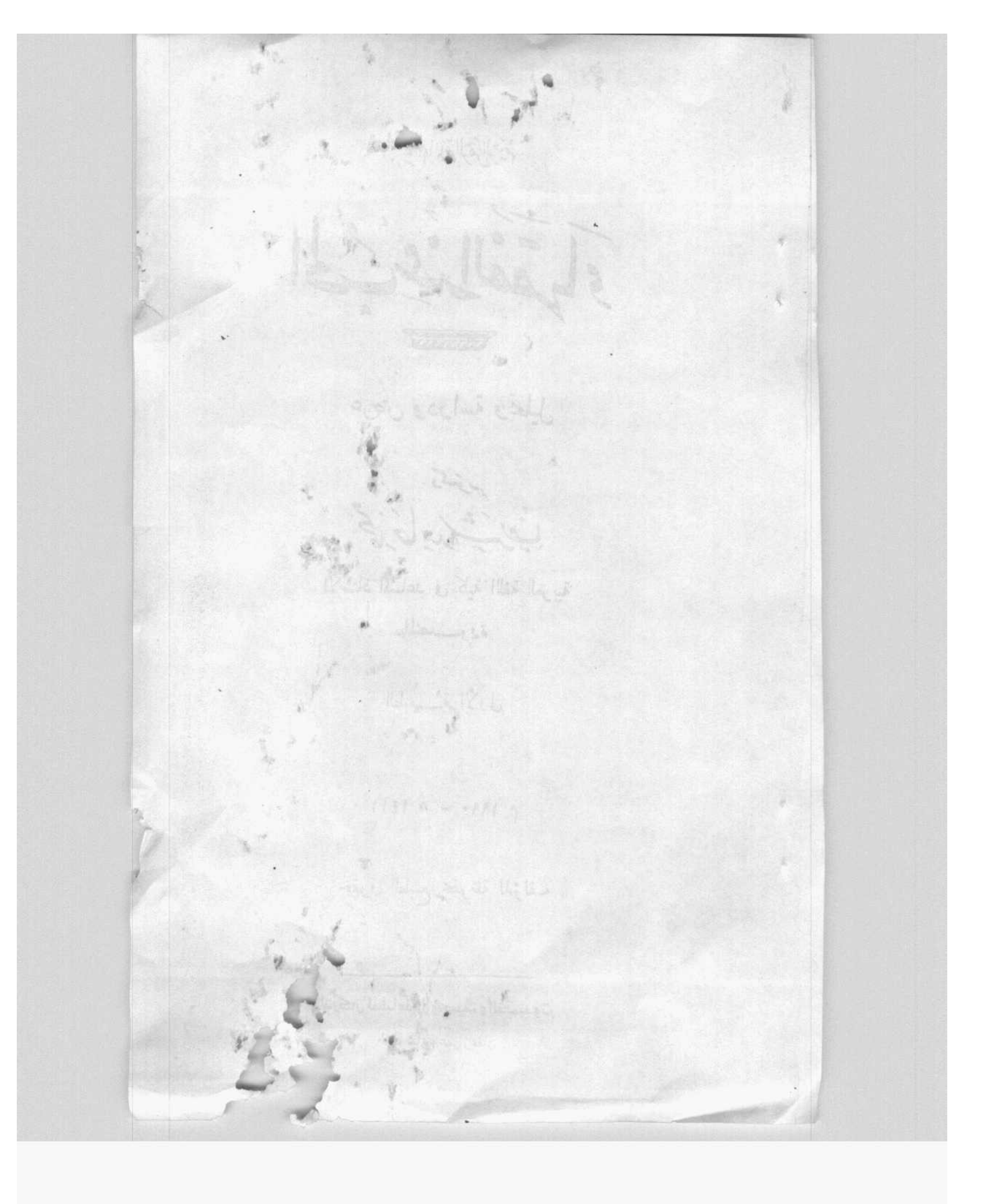
محمد حامد شريف

الأستاذ المساعد فى كلية اللغة العربية
بالمنصورة

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

التركى لطباعة الأوفسيت والكمبيوتر
طنطا شارع عمر زعفان

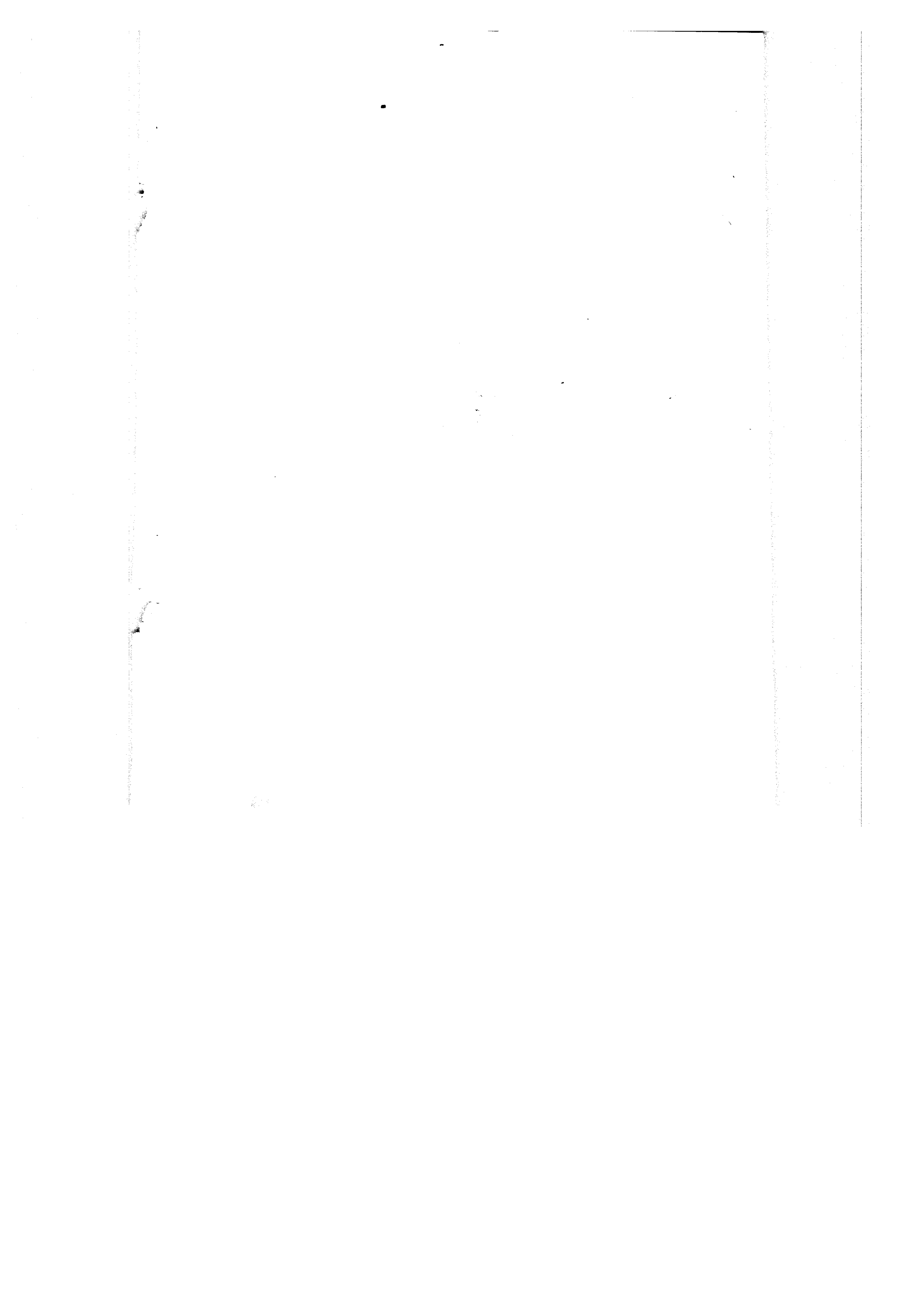


« دعاء »

اللهم إنا نتوجه إليك ونسعى نحوك ونجاهد أنفسنا فى طاعتك ونركب الصراط المستقيم إلى مرضاتك فأعنا بقوتك واهدنا بعزتك واعصمنا بقدرتك وبلغنا الدرجة العليا برحمتك ، والسعادة القصوى بجودك ورأفتك إنك على ما تشاء قدير .

اللهم ارزقنى حبك ، وحب من أحبك ، وحب مايقربنى إلى حبك ، واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد .

رواه الترمذى من حديث معاذ



بسم الله الرحمن الرحيم

« المقـــدمة »

إن الحمد لله نحمده تعالى ونشكره ، ونتوب إليه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، المبعوث رحمة للعالمين ، رأس المحبين والمحبوبين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعـــد . . .

فالحب بمعناه الأشمل ركيزة للإيمان ومنطلق إلى كل آفاق الوجـــود الإنسانى ، ففى الحديث الشريف عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ : « من أعطى لله ومنع لله وأحب فى الله وأبغض فى الله فقد استكمل الإيمان » .

والحديث يدور حول أربعة أركان قوامها « حب طاهر » يشع نوره فى القلب وتتقد جذوته فى حناياه ، حتى يكون « الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » بل لا يوجد شىء فى هذا الوجـــود الحادث إلا وهو مستند إلى حقيقة حب إلهية ، ولو لا ذلك ماصح لها أن تظهر ولا أن تعلم ، وإن من كمال العارف بالله حبه للنساء فإنه ميراث نبوى ولنتأمل قوله ﷺ « حبب إلىّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

أترى حبب إليه مايبعده عن ربه ؟ لا والله بل حبب إليه مايقربه من ربه وقد قال ﷺ : « حبب إلى » فلم ينسب حبه فيهن إلا إلى الله تعالى (١)

---

١) راجع الحب والمحبة الإلهية ، محمود غراب ص ٥ ، ٣٨

ولا أتصور كياناً لم يمارس الحب بأية صورة ، فعالم المرأة ما من رجل إلا وهو ضارب فيه بسهم حلال أو حرام .

- وحب الشهوات إذا ما تمكن فى ضمير المرء واستقر فى طويته ملك قيادته وملأ سريرته وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك صراحة فقال « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين .. الآية » (١)

فتلك شهوات راسخة فى نفوس البشرية ، لا يوليها ظهره إلا شاذ التكوين ولا يرغب عن النساء - فى عالم الطب - إلا مريض .

وكثير من الأمراض النفسية والهستيرية تكون نتيجة حتمية لصدمات عاطفية يخوضها المرء دون رصيد من عقل أو دين .

* * *

إن حب الرجل للمرأة وحديثه عنها شيء طبعى ، مادام مقروناً بالعفة ، موافقاً للشريعة متوخيا المقصد الأسمى وهو الزواج .

واهتمام الفقهاء بدراسة الحب هو فى صميمه اهتمام بالعلاقات الاجتماعية وما يترتب عليها من حلال مباح أو محظور محرم تبعاً لاختلاف تكوين الجنسين والوظيفة الأسرية .. إذن لا غرابة إذا علمنا أن الفقهاء : أول السابقين إلى دراسة الحب ، إذ هو ظاهرة كل العصور ، وعاطفة مسايرة للبشرية أينما حلت ، وحديثنا عن حب الفقهاء ، تتمة لهذا الحب العفيف الذى كان صدىً لتعاليم الإسلام ومبادئه وللدين سلطان لا يخفى فى الحفاظ على هذه العاطفة المتسقة مع الطبيعة البشرية .

---

٢) آل عمران آية ١٤

والحب عند الفقهاء : جانب من أدبهم الخصب الذى يستحق الدراسة فهو أدب وجدانى من الطبقة الرفيعة ، وطراز سامٍ يعبر عن أعمق المشاعر وأرقها. والجدير بالذكر أن كثيراً من الكتاب يعبرون بالفقهاء تغليباً لجانب الفقه على غيره من العلوم ، إذ كان أكثر العلماء من المشاركين فى علم الفقه ، وكانت صفة الفقيه تطلق على العالم من أى صنف كان ، وفى المغرب والأندلس كانت تعتبر صفة تشريف ، فتطلق على كبار رجال الدولة من وزراء وحكام وغيرهم ، (١)

فلا يشترط إذن أن يكون محصوراً فيمن له آراء فقهية ، وإنما المراد ذلك المعنى العام ليشمل كل من فقه فى دينه أو عرفت له صلة قوية بالدين .

والجدير بالذكر أيضا : أن التأليف فى الحب شديد الإغراء ، سهل الإنزلاق إلى ما يبعد عن الهدف ، ولقد حاولت ـ جهدى ـ نحو تأصيل هدف أسمى وغاية نبيلة ، ويوم تفقد البشرية المثل الأعلى فى حبها ، تفقد شبابها ، وما أحسن قول القائل :

ليس الشباب زمنا من أزمنة الحياة ؛ بل شعور فى النفس ، ونشاط فى العواطف وإرباء الشجاعة على التهيُّب .. وما من أحد يهرم لأنه عاش عدداً من السنين ، وإنما يهرم الناس حين يهجرون مثلهم العليا جانبا !! وكرّ السنين يترك الجلد مغضّنا ، ولكن الخوف والقلق وعجز المرء عن الإيمان بقدرته هذه هى السنوات الطويلات التى تحنى الرأس . ! (٢)

ـ فما أحوج البشرية إلى تلك الدراسة التحليلية التى تصل إلى أغوار النفس

---

١) أدب الفقهاء ، دكتور عبد الله كنون ص ٦٤

٢) راجع مشكلات عواطف الشباب ، محمود زراعة ص ٥

لتعالج أمراضها ، وتراجع سلوكها ، وهذا ما نأمله ، والله من وراء القصد ؟

دكتور

محمد حامد شريف

المنصورة فى { ٢٨ من ربيع أول ١٤١١ هـ
١٧ من أكتوبر ١٩٩٠ م }

الباب الأول

مفهوم الحب

الفصل الأول

تطور الحب

أولاً : تطور مفهومه .

ثانياً : تعدد أنواعه .

ثالثاً : الحب العذري ومزاعم المستشرقين .

أولاً : تطور مفهومه :

كثيراً مايقع الخلط بين الحب والشهوة الجنسية، فهو لايزيد عند بعض المتكلمين على توجيه الدافع الجنسى إلى شخص معين، وكأنه لايعدو أن يكون مظهراً من مظاهر الغريزة الجنسية ينتهى بإشباعها وتطمينها ولايمتد إلى أكثر من ذلك ، وهذا خلف من القول .

فالحب من الكلمات التى تطور معناها بتطور حياة الأمم فانتقل من دور البداوة إلى الحضارة، وفهمه الحضريون على طريقتهم والأعراب على طريقة أخرى، ولهذا يؤكد "أورتيجا إيجاست" أن فقه اللغة العربية لم يصل بعد إلى تحديد دقيق لما يمكن أن يفهم من كلمة "حب" فى أسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، وطرح موضوع الحب بوصفه نظاماً واكتشافاً وقواعد إنسانية عندما عثر على أبيات ابن حزم الرائعة التى أهداها إلى صديقه عبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أمين المؤمنين الناصر - رحمه الله - والتى يقول فيها :

أودك وداً ليس فيه غضاضة
وبعض مودات الرجال سراب

وأمحضتك النصح الصريح وفى الحشا
لودك نقش ظاهر وكتاب

فلو كان فى روحى هواك اقتلعته
وفرق بالكفين عنه إهاب[(١)]

ومالى غير الود منك إرادة
وافى سواه إليك خطاب

---

(١) الإهاب : الجلد ، والأبيات بطوق الحمامة لابن حزم الأندلسى ص/٧ ط القاهرة .

إذا حزتـه فالأرض جمعـاء والـورى

هبـاء وسكـان البـلاد ذبـاب

والقارىء غير المسئول - وهو الأكثر شيوعاً - يتزحلق بعينيه عبر هذه الأبيات ويعتقد أنها مفهومة، لأنها لاتضم رمزاً رياضية مبرمة ولكن القارىء الجيد ينتهى من قراءتها ولديه انطباع يكاد يكون دائماً أنه لم يفهمها تماماً، والحقيقة أن هذه الأبيات لايمكن أن تفهم بدقة، لأننا لانعرف ماذا يريد المؤلف بكلمة "حب" أو "ود" . لاأظن أن فقه اللغة العربى أصبح على قدر من التقدم والدقة فى دراسة معانى الألفاظ، وأننا نستطيع معه أن نصل إلى تحديد ماكان يفهمه المجتمع الأندلسى من كلمة "حب" فى القرن العاشر الميلادى لأنها كانت تعنى شيئاً مختلفاً إلى حد بعيد ويكفى أن نلحظ أن الشعر يتوجه بهذه الأبيات إلي رجل، وطبعاً أعرف أنه يوجد بيننا أيضاً حالات من الشذوذ الجنسى، حب الرجل لرجل، ولكن المسلم به فى أوربا أن كلمة "حب" تعنى أولاً، وبالتحديد ، شيئاً يودعه الرجل فى المرأة وترسله المرأة إلى الرجل أما حب الرجل للرجل والمرأة للمرأة فلا نفهمه دون أن أزيد شيئاً. بل علينا أن نمارس عملية صعبة تقوم على تجريد الكلمة من معناها الأول، وأن نحاول خبط عشواء أن نلبسه معنى آخر مختلفاً لكى نتصور عشق الرجل للرجل .. ولست أهدف من وراء كل هذا إلا أن أدفع بمزيد من الحيوية بأشد الطرق إيجازاً إلى الإحساس بأن "موضوع الحب" هذا خطير للغاية، ولايوجد حب طبيعى نضع فى مواجهته كمقابل له الغراميات الشاذة[١] ، ولسوء الحظ فإن فهم حقيقة "الحب" مضطرب فكلمة "حب" تطلق وحدها على أشياء متباينة : فهى تطلق فى اللغات الرومانسية على هذه المجموعة من المشاعر وهى كلمة بالنسبة لنا غامضة إلى حد بعيد، لأنها تنحدر عن أصل ميت

(١) راجع دراسات عن ابن حزم وكتابة طوق الحمامة، د / الطاهر أحمد مكى ط دار المعارف ص٢٢٢ .

لامعنى له، أخذته لغاتنا من اللاتينية، ولكن الكلمة ليست لاتينية لأن الرومان تلقوها بدورهم من لغة الأتروسك وهى اليوم لغة مجهولة وغامضة. وهذا الواقع اللغوى بليغ جداً بنفسه، ماذا يعنى أن يطلق الرومان على حقيقة بالغة الشفافية وإنسانية عالمياً - فيما يبدو - مثل التوتر العاطفى ، كلمة ذات أصل أجنبى ؟ هل يعنى هذا أن الرومان قبل أن يحضرهم الأتروسك لم يكونوا يعرفون هذا الشىء الذى كان هؤلاء يطلقون عليه لفظ "حب" ومن ثم كان هذا بالنسبة لهم نظاماً جديداً .. وربما عندما تطلق لفظ "حب" على مشاعرنا الأكثر دفئاً صفاء تجاه امرأة نطلق عليها دون أن نعرف شيئاً قبيحاً. وكان شعب الأتروسك واحداً من أشد الشعوب شهوانية على ظهر البسيطة وكانت شهوانيته مرعبة[(١)] .

وقد تحدث القرآن الكريم عن العشق والعفة والحب والنظرة إلا أن ذلك ظل فى حدود نصوص شرعية محددة بهدفها الدينى المباشر ولم تستثمر كمنطلق لدراسة السلوك الإنسانى والعواطف البشرية، وحين نتوجه إلى جهود العلماء خلال القرون الثالثة من الجاهلية حتى نهاية القرن الثانى الهجرى نراها لاتتجاوز بعض التعريفات والتعليقات السريعة التى لاتخلو من غموض هى نابعة من الخبرة الشخصية لامن الرصيد الموضوعى، مثل مايروى من أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن العشق، فقال: هو سوانح تسنح للمرء فيهتم بها قلبه، وتؤثرها نفسه، فقال له ثمامة : اسكن يايحيى إنما عليك أن تجيب فى مسألة طلاق أو فى محرم صاد ظبيا أو قتل نملة، فأما هذه فمسائلنا نحن فقال له المأمون : قل ياثمامة ماالعشق؟ فقال : العشق جليس ممتع وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه لطيفة ومذاهبه غامضة وأحكامه جائرة ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها والعقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها وقود تصرفها تـوارى عن الأبصار مدخله وعمى فى القلوب مسلكه، فقال له

---

(١) المرجع السابق ص٢٢١ .

المأمون أحسنت ياثمامة وأمر له بألف دينار[١] ونحن لانشارك المأمون إعجابه بهذا التعريف الخطابى، فيكفى أنه حين وصل إلى النقطة الحاسمة : أسبابه وأطواره لم يجد أمامه غير الهرب بقوله "توارى" و "عمى" ومع هذا فإننا لانتعسف فنطلب من العصر غير طباعة واستطاعته[٢] .

ثانياً : أنواع الحب :

يمدنا ابن القيم فى "روضة المحبين" بنحو خمسين اسماً للحب تدور كلها حول مشاعر المحبين ومايخطر لهم من أحاسيس، ويأخذ فى تحليل كل نوع من هذه الأنواع وينظر فى اشتقاقها ونسبة بعضها إلى بعض فى بحث طريف مستفيض يستغرق نحو أربعين صفحة، ومن الأسماء أو الأصناف[٣] المحبة - العلاقة - الصداقة - العشق - الوله - الصبوة - الصبابة - الشغف - الوجد - الكلف - الجوى - الشوق - التباريح - الشجن - الوصب - السهد - اللهف - الحنين - اللوعة - الود - الخلة - الغرام - الهيام - التعبد .

فالمحبة : قيل أصلها الصفاء لأن العرب تقول الصفاء بياض الأسنان ونضارتها : حبب الأسنان . وقيل : مأخوذة من الحباب وهو مايعلو الماء عند المطر، وعلى هذا : فالمحبة غليان القلب وثورانه عند لقاء المحبوب .

أما العلاقة : فهى من أسماء المحبة ، قال الجوهرى : والعلق أيضاً الهوى، يقال نظرة من ذى علق قال الشاعر :

ولقد أردت الصبر عنك فعاقنى ... علق بقلبى من هواك قديم[٤]

---

(١) مصارع العشق جـ١ / ١١ .

(٢) راجع الحب فى التراث العربى، د / محمد حسن عبد الله، ط عالم المعرفة .

(٣) راجع روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص١٦ - ٥٣ ط مصر .

(٤) هو ابن الدمينة كما قال ياقوت .

والعشق : إفراط فى المحبة، ولايقع إلا بين اثنين ، والعشق عند العرب مرتبة فى الحب خاصة، ومنزلة قبلها منازل .

والصداقة : نوع من المحبة تعنى المودة، وتقع غالباً للمنفعة، والصداقة بين الأخيار مودات أصحابه باقية غير متغيرة .

والوله : ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد ، ورجل واله وامرأة واله ووالهة ، قال الأعشى .

فأقبلت والهاً ثكلى على عجلٍ   كُل دهاها وكلٌ عندها اجتمعا

والصبوة : ميل إلى الجهل ، قال تعالى حكاية عن يوسف - عليه السلام - "وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين" (١)

والفرق بين (الصَبا والصبوة والتصابى) أن التصابى : تعاطى الصَّبا، الصبا : نفس الميل . والصبوة : المرّة من ذلك ، كالغشوة والكبوة .

أما الصبابة : فهى رقة الشوق وحرارته ، يقال : رجل صبٌ عاشق مشتاق، وقد صبِبت يارجل بالكسر .

وأما الشغف : فهو من الشغاف الذى هو غلاف القلب ومنه قوله تعالى فى حب زليخا ليوسف : "قد شغفها حبا" (٢) .

قال ابن عباس : أى دخل حبه تحت شغاف قلبها .

وأما الوجد : فهو الحب الذى يتبعه الحزن وأكثر مايستعمل فى الحزن يقال : وجد عليه فى الغضب موْجِدة ووجد فى الحزن وجداً .

وأما الكلف : فهو من أسماء الحب، وأصل اللفظة من الكلفة والمشقة يقال: كلفة تكليفاً إذا أمره بما يشق . قال تعالى : "لايكلف الله نفساً إلا وسعها" (٣) .

---

(١) سورة يوسف آية /٣٣ .
(٢) سورة يوسف آية / ٣٠ .
(٣) سورة البقرة آية / ٢٨٦ .

وأما الجوى : فهو الحرقة وشدة الجد من عشق أو حزن .

وأما الشوق : فهو سفر القلب إلى المحبوب بمشاعره وعواطفه ففى الصحاح: الشوق والاشتياق : نزاع النفس إلى الشىء يقال : شاقنى الشىء يشوقنى فهو شائق وأنا مشوق وشوّقنى فتشوقت : إذا هيج شوقك .

وقال بعض العارفين : لما علم الله شوق المحبين إلى لقائه ضرب لهم موعداً للقاء تسكن به قلوبهم .

وأما التباريح : فيقال : تباريح الحب وتباريح الشوق ، وبرّح به الحب والشوق إذا أصابه منه البرح وهو الشدة .

وأما الشجن : فهو الحاجة حيث كانت ، وحاجة المحب أشد شىء إلى محبوبه، والجمع شجون ، روى ابن برى :

ذكرتك حيث استأمن الوحش والتقتْ

رفاق به والنفس شتّى شجونُها

ويجمع على أشجان : قال الشاعر :

تحمّل أصحابى ولم يجدوا وجدى ... وللناس أشجان ولى شجن وحدى

والشجن أيضاً الحزن والجمع أشجان . وأشجنه غيره أى أحزنه والحب فيه الأمران . !

وأما الوصب : فهو ألم الحب ومرضه، فأصل الوصب المرض، وفى الحديث الصحيح "لايصيب المؤمن من هم ولاوصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه"[١].

---

(١) فى صحيح مسلم وغيره بألفاظ متقاربة .

وقد يدخله الدوام، قال تعالى : "ولهم عذاب واصب"(١) وقال : "وله الدين واصبا"(٢) .

وأما السُهد : فهو من آثار المحبة ولوازمها، فالسهاد : الأرق وقد سَهِد الرجل بالكسر يسْهد سَهَدا .

وأما اللهف : فمن آثارها أيضاً، يقال : لهِف بالكسر يلهف لهفا أى حزن وتحسر . وكذلك التلهف على الشيء . قولهم : يالهفَ فلان كلمة يتحسر بها على مافات .

وأما الحنين : فهو من آثار الرحمة ، فالعرب تقول : حنانك يارب وحنانيك بمعنى أى رحمتك، أوهن من آثار الحب وموجباته، وحنين الناقة صوتها فى نزاعها إلى ولدها. وحنّةُ الرجل امرأتُه قال الشاعر :

وليلـةٍ ذات دجـى سريـت ولـم تضرنـى حنّـةُ وبيـتُ

وسميت حنّة لأن الرجل يحنّ إليها أين كان .

وأما اللوعة : فهى حرقة الحب، وقد لاعه الحب يلوعه، والتاع فؤاده أى احترق من الشوق .

وأما الودّ : فهو خالص الحب وألطفه وأرقه، وتتلازم فيه عاطفة الرأفة والرحمة قال تعالى : "وهو الغفور الودود " وقال سبحانه "إن ربى رحيم ودود"(٣) .

وأما الخلة : فهى توحيد المحبة، وهى رتبة أو مقام لايقبل المشاركة، ولهذا اختص بها فى مطلق الوجود الخليلان : "إبراهيم ومحمد" صلوات الله وسلامه

---

(١) الصافات آية / ٩ .

(٢) النحل آية / ٥٢ .

(٣) سورة البروج آية / ١٤ وسورة .

عليهما قال تعالى : "واتخذ الله إبراهيم خليلا" (١) وصح عن النبى (ص) قوله : "إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا" وقيل : إنما سميت الخلة كذلك، لتخللها جميع أجزاء الروح .

قال الشاعر :

قد تخللتِ مسلك الروح منى ... وبذا سُمّى الخليل خليلا

وأما الغـرام : فهو الحب اللازم، أى من اللزوم والتحمّل . يقال : رجل مغرم أى ملزم بالدين قال كثير عزة :

قضى كل ذى دَين فوفى غريمه ... وعزّة ممطول معنّى غريمها

ومن نفس المادة قوله تعالى عن جهنم : "إن عذابها كان غراما" (٢) أى لازماً دائما .

وأما الهيام : فهو جنون العشق وأصله داء يأخذ الإبل فتهيم لاترعى والهِيام (بكسر الهاء) الإبل العطاش فكأن العاشق المستهام قد استبدّ به العطش إلى محبوبه فهام على وجهه لايأكل ولايشرب ولاينام، وانعكس ذلك على كيانه النفسّ والعصبى فأضحى كالمجنون أو كاد .

التعبّـد : هو غاية الحب وغاية الذل، وهو قمة الهرم صعوداً فى معنى الحب. يقال : عبدّه الحب أى ذلله، وطريق معبّد : أى مذلل ولاتصلح هذه المرتبة إلا لذات الله تعالى .

فالعبودية : أشرف أنواع الحب ، وهى خالص حق الله على عباده . وقد وصف الله سبحانه محمداً بالعبودية فى ثلاثة مواضع هى أشرف المقامات وهى (مقام التحدى

---

(١) النساء آية / ١٢٥ .

(٢) الفرقان آية / ٦٥ .

ومقام الإسراء، ومقام الدعوة) فقال سبحانه فى التحدى : "وإن كنتم فى ريب مما نزّلنا على عدنا فأتوا بسورة من مثله"[١] .

وقال فى مقام الإسراء : "سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً .." الآية[٢] وقال فى مقام الدعوة : "وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا"[٣] .

فالعبودية أشرف صفات العبد وأرقى أنواع المحبة.[٤]

ثالثاً : الحبُّ العذريُّ ومزاعم المستشرقين :

كان أول من تعرض لنشأة الحب العذرى ، المستشرق "لوى ماسينيون" ورأى أنه مقتبس من الحب الأفلاطونى عند اليونان، ثم جاء المستشرق : "ريتهارت دوزى" فأكد ذلك حين رأى أن ابن حزم عرف الحب العذرى لأنه من أصل مسيحى، ولأن عرق المسيحية العفيف قد نبض فيه رغم إسلامه، ارتداداً لخصائص جنسه المسيحى الأسبانى.

فهو نموذج استثنائى لحب عفيف يسميه علماء النفس : الحب الأفلاطونى أو الرومانتيكى، وهو لون من الحب : ليس من خصائص الجنس العربى ولاالأدب الإسلامى، وكلاهما فى عواطفه الغرامية يستمدّ إلهامه غالباً من الرغبات الجنسية المبتذلة . !

---

(١) البقرة آية / ٢٣ .

(٢) الإسراء آية / ١ .

(٣) الجن آية / ١٩ .

(٤) راجع أيضاً : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه ص١٥١ - ١٥٢ .

- وهذا الزعم باطل ومردود من عدة وجوه نجملها فيما يلى :

(أ)

١ - كون الإسلام لايعرف هذا النوع من الحب ولايعرف العفة قد ردّ عليه كثير من الباحثين الغيورين على الإسلام [١] : يقول د . رجب اليومى :

"لو كانت مسألة العفة فى الإسلام من الأمور المتشابهة التى تلتبس فيها الآراء وتحتاج إلى مجهر دقيق يبرز مااستتر من النصوص والأحداث لعذرنا "دوزى وماسينيون" فيما ذهبا إليه من التفسير ، ولو كان المستشرقان الكبيران ممن لم يتعمقوا هذه النصوص الصريحة ولم يتبينوا الوقائع المشاهدة لقلنا عنهما لقد فقدا الدليل وأعوزهما البرهان، ولكن الحب العذرى فى الإسلام برجاله وأحداثه وأشعاره .. أشهر من أن يجهله مبتدئٌ ناشئٌ يتلقى الدراسة الأولى فى الثقافة الإسلامية ! بل إن كتاب "طوق الحمامة" الذى جعلهما يصدران هذا الحكم الجائر ليضم فصلين طويلين عن "قبح المعصية" وفضل العفة فى الإسلام" وبهما من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مايكفى لإيضاح رأى الإسلام فى التمسك بالفضيلة والشرف والعفاف" [٢] .

٢ - وربط العفة بالدين أو اللون أو الجنس عمل غير علمى :

يقول د / مكى: إن ربط العفة بالمسيحية والتبذل بالإسلام فضلاً عن مخالفته للواقع التاريخى يتنافى مع بسائط أى منهج علمى مثله فى ذلك القول بأن مسلمى الأندلس الذين انحدروا من أصول رومانية كانوا أرقى فى عواطفهم من الذين عبروا

---

(١) منهم د . طاهر مكى . دراسات عن ابن حزم ص١٩٣ ، د . محمد حسن عبد الله . الحب فى التراث العربى ص٣١٢ ، د . أحمد الجوارى الحب العذرى نشأته وتطوره ص/٤٥ .

(٢) الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ص١٥٣ .

إليه المضيق فاتحين أو وافدين. إن المسيحين الذين اعتنقوا الإسلام فى الأندلس فقدوا شيئاً فشيئاً الإحساس بأصولهم التى انحدروا منها حتى إن بعضهم صنع له شجرة نسب عربية ترفعه إلى قبائل معروفة ومشورة، مقابل أثمان دفعوها ذهباً .. وماكان المرء يستطيع أن يفرق بين الذين صنعوا لهم نسباً عربياً والذين احتفظوا بألقابهم الرومانية .. لقد صنعهم الإسلام على هواه، وصاغ منهم مجتمعاً متجانسا (١)

٣ - وماذا لو لم يتمكن المحب من الزواج بمحبوبته (وللحب سلطان على النفس لايملك) !؟ .

قضية معقدة ، أشار إليها المجنون بقوله :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبهـا فهـلا بشىء غير ليلـى ابتلانيا!

لهذا يدرك الإسلام المسلمين - وهم بشر - فيضع بين أيديهم مايعوضهم عن المعاناة والصبر دون ارتكاب المعصية، فيرشد المسلم إلى أنه قد يرتقى بحبه إلى درجة الشهداء!

نعم : فقد روى ابن عباس عن النبى (ص) قوله : "من عشق وكتم وعفّ وصبر، فمات مات شهيداً" (٢) .

---

(١) دراسات عن ابن حزم د . طاهر مكى ص٢٠٦ .

(٢) حديث صحيح قال الإمام العلامة الحافظ علاء الدين أبو عبد الله مغلطاى فى كتابه "الواضح البين" : هذا حديث إسناده صحيح .. ونقل أن هذا الحديث سنده كالشمس لامرية فى صحته ولالبس .

قلت : ولهذا عدّ جماعة من الفقهاء ميت العشق من الشهداء أخذاً بهذا الحديث . منهم الرافعى وغيره . وقال الشيخ محى الدين النووى" :

والميت عشقا والميت طلقا" يعنى الشهداء ، هذا مع شدته فى الدين وعدم مساهلته فى هذه الأشياء، وماأحسن قول ابن الأثير : دمع العاشق ودم القتيل متساويان فى التشبيه والتمثيل إلا أن بينهما بونا لأنهما يختلفان لونا . وقال الإمام العلامة أبو الوليد الباجى =

فاندفع المسلمون بذلك إلى الزهد والتقوى أو العذرية كما صارت تسمّى، إذ وجدوا - فى إسلامهم - مايوفّقون فيه بين الزهد ومطالب العاطفة، نجد هذا المعنى فى قول جميل :[1]

لكل حديث عندهن بشاشة ... وكل قتيل عندهن شهيد
يقولون جاهد ياجميل بغزوة ... وأى جهادٍ غيرهنّ أريدا!

حتى إن سكينه بنت الحسين، وكانت تعقد الندوات فى بيتها للنقد والأدب قد فضلت "جميلاً" على "جرير" معللة لذلك بقولها :

"إنه جعل حديثنا بشاشة، وقتلانا شهداء"[2] .

ويذهب بعض الكتاب إلى احتمال أن يكون الحب العذرى ردّ فعل طبيعى للغزل اللاهى فى مدن الحجاز، فحين رأى أهل البادية التحلل الخلقى الذى انزلق إليه أبناء المدينة، دفعهم ذلك إلى اتخاذ مسلك آخر حيال هذه العاطفة .

وذلك بإبرازها فى ثوب جديد يرضى عنه الخلق، ويوفق بين مطلب الجسم والروح معاً[3] .

== إذا مات المحب جوىً وعشقاً ... فتلك شادة ياصاح حقاً
رواه لنا ثقات عن ثقات ... إلى الحبر ابن عباس ترقى

(راجع مصارع العشاق لابن السراج جـ١/٧ ط الأولى بمصر) .

وهذا الحديث مقبول عند فقهاء الظاهرية والحنابلة ويذكر ابن الجوزى فى مخطوطه بباريس رقم (١٢٩٦) اثنى عشر اسنادا ويقبله "ابن العربى" فى محاضرة الأبرار ومسايرة الأخيار ويشرحه. ويذكره "داود الانطاكى فى تزيين الأسواق ص٦ (راجع الحياة العاطفية د. غنيمى هلال ص/٣٥) .

(١) الأغانى جـ١٤/١٦٦ ط بولاق .

(٢) المرجع نفسه جـ ١٠٤/٨ .

(٣) الحب ومذاهبه النفسية والجمالية د . الصادق عفيفى ص١٣٢ .

ونرى حرص الخلفاء على عفة المسلمين وهم فى أحرج المواقف، فهذا عمر يسمع ليلاً - وهو يتفقد الرعية - امرأة تقول :[١]

ألا طال هذا الليل وازورّ جانبه ... وليس إلى جنبى خليل ألاعبه

فو الله لولا الله تخشى عواقبه ... لحرك من هذا السرير جوانبه

مخافة ربى والحياء يعفنى ... وإكرام بعلى أن تُنال مراتبه

فسأل عمر - رضى الله عنه - عنها فقيل له : إنها امرأة فلان وله فى الغزاة ثمانية أشهر فأمر - رضى الله تعالى عنه - ألا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر" .

وقال الإمام علي - كرم الله وجهه - "أكفف أبصار النساء بالحجاب فإن شدة الحجاب خير لهن من الارتياب، وليس خروجهن بأضر من دخول من لايوثق به عليهن فإن استطعت ألا يعرفهن غيرك فافعل"[٢]

ويقول إبراهيم بن محمد المهلبى :[٣] .

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فيمنعنى ... منه الحياء وخوف الله والحذرُ

وكم خلوت بمن أهوى فيقنعنى ... منه الفكاهة والتأنيس والنظر

كذلك الحبُّ لاإتيان معصيةٍ ... لاخيرَ فى لذة من بعدها سقرا

(١، ٢) المستطرف من كل فن مستظرف جـ٢ / ٣٥٤ .

(٣) المرجع نفسه ص/٣٤٨ وفى مصارع العشاق جـ١ / ١٥٩ "إبراهيم بن عرفة" .

(ب)

-١-

وإذا كان الإسلام برجاله وأحداثه ومبادئه قد دحض مازعمه المستشرقون، فلا نسلم أيضاً بأن العرب فى الجاهلية لم يعرفوا هذا النوع العفيف من الحب، والأمثلة كثيرة، ربما خرجنا عن إطار موضوعنا، لكننا يمكن أن نقرر - فى اطمئنان - أن جميع أنواع الحب قد عرفت فى الجاهلية .

وإنه لمن الجور والسذاجة معاً أن نحكم على أمة بأسرها حكماً تنسلك فيه بعواطفها دون استثناء .!

وقد نحسن الظن فنقول : ربما قصد المستشرقون أن الحب العذرى لم يعرف من الناحية الأيدلوچية بحيث لم يمثل ظاهرة تعرف بها، لكن يبقى الهدف البعيد وهو : الطعن فى أنساب العرب وعواطفهم..!

وإن مما يدل على تقدير العرب **لفضائل الحب الروحية** : اهتمام عظمائهم بالحب والحث عليه فقد سأل "ذو الرئاستين" أحداثا من أهله (بعث بهم إلى شيخ يعلمهم) هل فيكم عاشق ؟ قالوا : لا ، قال اعشقوا ، فإن العشق يطلق الغبى ، ويفتح جبلّة البليد، ويسخّى كفّ البخيل، ويبعث على النظافة وحسن الهيئة، ويدعو إلى الحركة والذكاء وشرف الهمة، وإياكم والحرام"[١] .

-٢-

وإذا ذكرت كلمة العذرية، ذكر معها قبيلة بنى عذرة العربية، وقد اشتهرت بالعشق العفيف ، من ذلك ماروى عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : كنا عند عـروة

---

(١) المستطرف من كل فنى مستظرف جـ٢ / ٣٤٦ .

بن الزبير [١] وعنده رجل من بنى عذرة فقال له : ياعُذرى بلغنى أن فيكم رقة وغزلا فأخبرنى ببعض ذلك ! فقال : لقد خلفت [٢] فى الحى ثلاثين مريضاً مابهم داء إلا الحب قد خامر قلوبهم وأن فيه من المرارة والنكد والكمد ماهو مستعذب عند أربابه مستحسن عند أصحابه حلو لاتعدله حلاوة، ومر لاتعدله مرارة ثم أنشد :

ياأيها الرجل المعذّب بالهوى	إنى بأحوال الهوى لعليم
الحب صاحبه يبيت مسهّدا	فيطير منه فؤاده ويهيم
والحب لايخفى وإن أخفيته	إن البكاء على الحبيب يدوم
والحب فيه حلاوة ومرارة	والحب فيه شقاوة ونعيم
والحب أهون مايكون مبرّح	والحب أصغر مايكون عظيم

ولايعنى نسبة الحب العذرى إلى بنى عذرة أن هذا النوع من الحب لم يوجد عند غيرها، وإنما هو مثل واضح وثقه التاريخ وشهود العيان، وإلا فبماذا يجيب المستشرقون عن عشاق زاع صيتهم فى الحب العذرى، أمثال عروة بن أذينة، وعبيد الله بن عتبة، وعبد الرحمن القس، وجميل بثينه، وكثير عزة، وقيس وليلى وقيس ولبنى، والمرقش وأسماء وعروة وعفراء، وذى الرمة ومىّ، وتوبة وليلى الأخيلية ..!

والتقاء هؤلاء المحبين من الفقهاء والشعراء على طريق واحد رغم اختلاف العصور، يؤكد أن تلك العاطفة قد وجدت مرتعا خصباً فى البيئة العربية، وليس للثقافة الوافدة أثرٌ فى إظهارها .

وقد ينسب المسيحيون أو المستشرقون العذرية إلى مريم العذراء، أو إلى طقوس المعبد، وينسبها العرب إلى بنى عذرة وقد يثبت غيرهم وجودها فى أمة أخرى

---

(١) تابعى وأحد فقهاء المدينة السبعة وهو حجة فى رواية الحديث (أخبار النساء ص٦٧) .

(٢) فى الأصل : خلف ولعل الصواب ماأثبتناه .

ونحن لاننكر وجود الحب العذرى عند غيرنا - رغم أن سلامة النسبة (لغوياً) تؤكدها لبنى عذرة فتقول فى النسب إليها (عذرىّ) - رغم هذا لاننكر وجوده عند غيرنا، وربما فى كل أمة لكن مايهمنا هو بطلان ذلك الزعم من جهاته المتعددة والفطنة إلى أبعاده البعيدة الهدامة .

(جـ)

وربط المستشرقين - أو غيرهم - العذرية بالحب الأفلاطونى نوع من الخلط يجانب الصواب، فالحب العذرى يختلف عن الحب الأفلاطونى من عدّة وجوه: (١)

١ - يتضح للدارس أن الحب الأفلاطونى - كما جاء فى كتاب المائدة -(٢) يقوم فى مدنية ناضجة لها علومها وفنونها، بينما يقوم العذرى فى بداوة .

٢ - الأفلاطونى : علمى عقلى يعبّر عن نفسه بتعابير علميه عقلية والعذرى : عاطفى يعبر عن نفسه بتراكيب شعرية خيالية وتسيطر إرادة المحب الأفلاطونى على حبه فتسيره فى طريق مرسوم أما المحب العذرى فهو مسير بعاطفته المحمومة الصادقة، لايدرى إلى أين تؤدى به ولاكيف تنتهى آلامه .

٣ - الأفلاطونى وسيلة للخلق والإبداع والإنتاج أى ليس غاية بذاته بينما العذرى غاية بذاته لأنه ثورة نفسية تكبتها التقاليد الاجتماعية فى صدر صاحبها كبتا يؤدى إلى الهلاك غالباً .

٤ - فى الحب الأفلاطون يلزمك معلم .. ولاينفتح عقلك للجمال المطلق إلا بعد أن تكتوى بنار العلم والفن والحكمة وليس من ذاك شىء فى العذرى .

---

(١) راجع الحب العذرى . موسى سليمان ص٤٨ ، ٤٩ .

(٢) سنعرض له بإيجاز فى الفصل القادم إن شاء الله .

٥ - للحب الأفلاطونى موضوع نهائى هو الله أو الجمال المطلق المجرد عن المخلوقات والآخر موضوعه المرأة .

٦ - فى الحب الأفلاطونى ينجذب المحب إلى الجمال المطلق والعذرى تمنعه التقاليد العربية الموروثة من الاقتراب من المحبوب .

٧ - الأفلاطونى - رغم أنه مثالى - أقرب إلى حقيقة الإنسان من العذرى القاصر على جماعة من البشر لها طباع ومزاج خاص وتقاليد موروثة أباً عن جد، فالأول حب صحىّ عام والآخر مرضى خاص ، ولهذا كله نرى أن العذرية أقرب إلى العربية منها إلى الأفلاطونية .

❋ ❋ ❋ ❋

الباب الأول

الفصل الثانى

الحب بين الفلسفة وعلم النفس

- ١ -

الحب الأفلاطونى وكتاب المائدة :

تخيل أفلاطون حفلة يونانية ضمت رهطاً من مختلف طبقات المجتمع اليونانى بينهم الطبيب والمحامى والأديب والشاعر والفيلسوف .. وأخذ كل منهم يبدى رأيه فى الحب وأفلاطون يتابع تلك المفاهيم المتعددة وهى على كثرتها وأهميتها لاتعبّر عن رأيه الذى أشار إليه سقراط حينما نقض أقوال زملائه فى تشديده على تعيين حبيب الحب وهو دائماً الجمال، وأن الإنسان لايفتش عن نصفه إلا إذا كان صالحاً جميلاً، لأن الإنسان فى حبه إنما يحب الخير فقط. فالحب هو : الرغبة الصادقة فى امتلاك السعادة وامتلاك ماكانت صفته الخير، والحب هو : رغبة التوليد الروحى والجسدى بفعل حضرة الجمال لأن القباحة والتشويه لايلهمان النفس ولايوحيان إليها .. ومن ثم ينتقل من الأشكال المادية الحسية الجميلة إلى النفوس الجميلة، فجمال النفس المشرقة أرقى من جمال الأبدان وأبهى. وجمال الروح المستنيرة أوقع فى النفوس وأروع من الجمال الحسى. وظل سقراط يتدرج فى سلم الحب الأفلاطونى الذى يمكن إجماله فى سبع درجات :

١ - حب الجمال فى شكل واحد معين .
٢ - حب الجمال فى كل الأشكال الجميلة .
٣ - حب الجمال الروحانى وتفضيله على الجمال الجسمانى .
٤ - حب الجمال فى المؤسسات والشرائع .
٥ - حب الجمال فى العلوم الطبيعية .
٦ - حب الجمال فى المثل التى تكشف عنها الفلسفة .
٧ - حب الجمال المطلق - مجابهة وجه الحق الجميل !

وهذه الدرجات المختلفة متممة الواحدة منها الأخرى يجب أن يمر بها الإنسان ليعرف معنى الحب الأفلاطونى الصحيح، وليتذوق طعم الجمال المطلق. فهو حب يبدأ

بالحسيات وينتهى بالمثل، يولد على الأرض ويطير بأجنحة خفية إلى السماء.(١)

فالحب فى رأى أفلاطون حبان : سماوى علوى، وأرضى عامىّ ويمتاز الأول ببعده عن المرأة بل هو حب الذكور وهو يتعلق بالروح فلا يعبأ بالجسد ولايحفل بلذاته، والمحب ينشد فى حبه أولاً الأرواح الصافية والنفوس العالية والعقول الراجحة. والحب وسيلة يسعى بنو آدم من طريقها إلى الخلود، وهذا الخلود يختلف فهم الناس إياه فمنهم من يسعى إليه من طريق النسل ومنهم من ينشده بالروح والعقل وهؤلاء هم الخالدون حقاً .

وأفلاطون كأهل عصره - ينظر إلى الحب على أنه حب الذكور للذكور ويفسر بعضهم ذلك بأن الخدمة العسكرية المستمرة التى كانت تفرض على الجنود البعيدين عن النساء صرفتهم إلى حب الذكور ولما جاء سقراط وهو طليعة الفكر اليونانى لم يزد على أن جعل هذه العلاقة الشاذة حباً عقلياً يقوم على تربية المحبوب وترقية تفكيره.. وكان لهذا الأمر أثره البعيد فى دراسة الحب عند العرب بعد أن ترجموا إلى لغتهم أدب اليونان وفلسفتهم.(٢)

ويرى الفلاسفة المشاؤون(٣) أن الحب : اتفاق أخلاق وتشاكل محبّات وتجانسها وشوقُ كل نفس إلى مشاكلها ومجانسها فى الخليقة القديمة قبل إهباطها إلى الأجساد قلت : هذا مبنى على قولهم الفاسد بتقدم النفوس على الأبدان، وعليه بنى "ابن سينا" قصيدته المشهورة :

---

(١) راجع الحب العذرى ص٤٢ ومابعده موسى سليمان وقد اعتمد فى دراسته لكتاب المائدة بالانكليزية على تعريب محمد لطفى جمعه .

(٢) راجع الحب العذرى د . الجوارى ص / ٨ .

(٣) المشاؤن : أتباع أرسطو . وقيل : لقبوابه لأنه كان يعلمهم وهم مشاة أو لأن محل التعليم كان يسمى بالمشى ، وقيل غير ذلك .

* هبطت إليك من المحلّ الأرفع * (١)

-٢-

وإذا كان هناك بعض العناصر الأفلاطونية فى الحب العربى فهى فى رسالة العشق "لابن سينا" وفى الحب الصوفى الذى ظهرت بذوره فى الحياة الأولى للإسلام ثم انتشر فى أواخر القرن الثانى للهجرة وأوائل القرن الثالث . ولقد اتفق جميع الباحثين فى التصوف العربى على تأثره بالعناصر الأجنبية كالنصرانية والفارسية .. والأفلاطونية الجديدة .

فاهتمام الصوفى بتعيين هدف حبه وهو الله يجيز لنا (مقارنة هذا الحب بالحب الأفلاطونى) .

وتبرز عناصر الأفلاطونية فى الحب الصوفى بروزاً واضحاً فى مايسميه المتصوف "طريق الوصول إلى الله" .

فهذه الطريق وإن اختلف المتصوفون فى تعيينها تشبه كثيراً سلم الحب عند أفلاطون إذ كلتاهما تقود إلى هدف سماوى هو : "الله" أو "الحق المطلق" يقول المتصوفون : "إن للسفر إلى الله أو الحج إليه مقامات هى : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا، وكل مقام محتاج إلى مجهود لقتل النفس وإخماد شرّها فتنصرف عن الملذات وتتخلص من شوائبها .. فيشرق فى القلب نور هو نور اليقين ويفنى المحب الصوفى فى الصفات الربانية والأنوار الإلهية فيطالع الله فى مرآة نفسه" .

فهذه المقامات ليست بعيدة عن أفلاطون ، خاصة بعد أن يجعلها السّراج الطوسى فى كتابه "اللمع" سبعة تشبه درجات الحب السبع عند أفلاطون، وطاعة المعلم

(١) روضة المحبين / ١٤٠

العمياء واجبة للصوفى ليتمكن من الوصول إلى الله ومجابهة الحق كما رأينا أن العلم والتدريب ضروريان للمحب الأفلاطونى. (١)

-٣-

أول مائدة حب إسلامى :

وعلى غرار مائدة أفلاطون "عند اليونان" نجد أول مائدة للفلسفة العربية الإسلامية تخص العشق بالحديث : مادار من حديث فى مجلس الوزير "يحيى بن خالد البرمكى" وكان ذا علم وأدب ومعرفة وكان مجلسه كذلك ينتظم فيه جماعة من أهل الأدب والبحث والنظر، فطلب إليهم ذات يوم الحديث عن العشق ليقول كل منهم مايسنح له فيه، فقال على بن هيثم (٢) وكان إماميّ المذهب ومن متكلمى الشيعة: أيها الوزير، العشق: ثمرة المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين، وهو من بحر اللطافة ورقة الصنيعة وصفاء الجوهر، وليس يحدّ لسعته والزيادة فيه نقصان من الجسد"

وقال محمد بن الهذيل العلاف، وكان معتزلى المذهب وشيخ البصريين: أيها الوزير، العشق : يختم على النواظر ويطبع على الأفئدة، مرتقى فى الأجساد مسرعة فى الأكباد وصاحبه متصرف الظنون متغير الأوهام لايصفو له موجود ولايسلم له موعود تسرع إليه النوائب وهو جرعة من نقيع الموت .. غير أن العشق من **أريحية تكون فى الطبع وتوجد فى الشمائل** " .

- وقال هشام بن الحكم - الكوفى شيخ الإمامية - أيها الوزير ، العشق : حبالة نصبها الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص فى النوائب، فإذا علق المحب فى شبكتها ونشب فى أثنائها فأبعد به أن يقوم سليماً أو يتخلّص وشيكا، ولايكون إلا من **إعتدال الصورة وتكافؤ فى الطريقة وملاءمة فى الهمة**، له مقتل فى صميم الكبد ومهجة القلب، يعقد اللسان الفصيح.."

(١) الحب العذرى موسى سليمان ص٥٠ - ٥١ والفرق الإسلامية - محمود البشبيشى ص٧٥ - ٧٧ يتصرف فيهما .

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى جـ/٤/٢٣٧ ومابعدها . جـ١ بيروت -١٩٧٣- تحقيق شارل بلا .

- وقال النظام إبراهيم بين يسار - المتعزلى أيها الوزير، **العشق أرق من السراب وأدب من الشراب**، وهو من طينة عطرة عجنت فى إناء الجلالة، حلو المجتنى مااقتصد، فإذا فرط عاد خبلا قاتلاً وفساداً معطلاً، لايطمع العلاج فى صلاحه، له سحابة غزيرة تهمى على القلوب فتعشب شغفا وتثمر كلفا .. إذا أجنه الليل أرق وإذا أوضحه النهار قلق، صومه البلوى وإفطاره الشكوى" .

- وقال على بن منصور من نظار الشيعة الإمامية : "العشق - أيها الوزير - داء لطيف المربى ، يمتزج بالنفس ويخامرها ويمشى فى الأراء فيفيض فيها لايصحو شاربه ولايفيق نزيفه، وهو من ناحية **المطابقة والمجانسة** فى التركيب والصنعة"

- وقال معتمر بن سليمان - من شيوخ المعتزلة : أيها الوزير، العشق : **نتيجة المشاكلة وغرس المشابهة** . له دبيب كدبيب النمل أسيره شديده الوثاق وصريعة قلما يقام وهو **تعارف الطبائع واتصال الأرواح وتداعى الضمائر**.."

- وقال ثمامة بن أشرس : أيها الوزير ، العشق : هو إذا تفاوحت جواهر النفوس بوصول المشاكلة والمناسبة والمساكنة انبعث لمح نور ساطع تستضىء به نواظر العقل وتهتز لإشراقه طبائع الحياة فتصير من ذلك اللمح نورا خالصاً لاصقاً بالنفس متصلاً بجوهرها يسمى عشقا" وقال السكال الأمامى : أيها الوزير، العشق وليد المسامحة وعقيب المناسبة، وهو دليل على روح المحبة وشاهد على رحم التجانس فهو يسور فى البنية سوران الشراب وصاحبه نيّر القريحة، مشرق الطبيعة فائق الشمائل.."

- وقال الصباح بن الوليد - من المرجئة - أيها الوزير، العشق : يعدى خبره دون أثره ولايشنؤه قلب امرىء مرسوم بالبراءة ولطف الصورة ولايعلو إلا عن **نسب التشاكل** وإلى غاية الرقة يضاف صاحبه " .

– وقال إبراهيم بن ملك : أيها الوزير، العشق : سوانح تسنح للمرء تعجزه تارة وتؤيسه أخرى وهى التى تضرم أحشاءه بوجد قلبه" .

إلى آخر من تكلم من الحضور فى ذلك المجلس المهيب . فهذا الحشد من رجال الفكر يعطى – دون شك – إيحاء عميقاً لما كانت عليه أفكار العلماء فى البيئات الثقافية المختلفة عن الحب وقد شغل طوائف المفكرين .

- ٤ -

ويمتد الحديث عند أهل الفلسفة الإسلامية فنجد (رسائل إخوان الصفا)[١] الرسالة السادسة من النفسانيات العقليات فى ماهية العشق وهى السابعة والثلاثون فى التسلسل العام[٢] .

يعرضون فيها لأقوال الحكماء فى العشق بالمناقشة والتحليل ثم يرجحون قول من قال : "إنه شدة الشوق إلى الاتحاد" ويفسرون معنى "الاتحاد" بأنه خاص بالأمور الروحانية والنفسية لأن الأمور الجسمانية لايمكن اتحادها بل كل مايمكن أن يكون هو : المجاورة والممازجة والمماسة . ويرتبط عند القول بالمشاكلة بأنواع النفوس الثلاثة : النباتية (الشهوانية) والغضبية (الحيوانية) والناطقة "إنه ليس أحد من الناس يخلو من نوع من هذه الأنواع الثلاثة التى ذكرناها أو يكون آخذاً بنصيب من كل واحد منها قل أو كثر" (ص ٢٧٢) ثم قالوا بتأثير النجوم على المزاج "وذلك أن كل إنسان يكون المستولى عليه فى أصل مولده القمر أو الزهرة وزحل، فإن الغالب على طبيعته قوة النفس الشهوانية نحو المأكولات والمشروبات والجمع والادخار لها. وإن يكن المستولى

---

(١) هى مدرسة دينية فلسفية ازدهرت حوالى عام ٩٧٠م بالبصرة، هالهم ضعف الخلافة وفقر الشعب فحاولوا التجديد الثقافى بما لهم من صبغة صوفية وربما كانوا من الشيعة المتطرفة (الإسماعيلية) ورسائلهم صورة لما كان عليه المجتمع من تيارات فكرية وسياسية .

(٢) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء المجلد الثالث ط بيروت ص٢٦٩ - ٢٨٦ .

عليها المريخ والزهرة أو القمر، فإن الغالب على طبيعته شهوة الجماع والمناكح. وإن كان المستولى على أصل مولده الشمس والمريخ فإن الغالب على طبيعته تكون شهوة النفس الغضبية نحو القهر والغلبة وحب الرياسة وإن كان المستولى عليه فى أصل مولده، الشمس وعطارد والمشترى فإن الغالب على طبيعته تكون شهوات النفس الناطقة نحو المعارف واكتساب الفضائل والعدل" (٢٧٣) .

إلا أنهم احترزوا لعدم ثبات العشق أو تغيير أحواله "وأما تغير العشق بعد ثباته زماناً طويلاً فهو تغير أشكال الفلك فى تحاويل سنى مواليد الناس، وسير درجة الطالع وتنقلها فى حدود البروج والوجوه وهكذا تسييرات شعاعات الكواكب فى أبراج الانتهاءات فى مستقبل السنين" (ص / ٢٧٥).

والعاشق - فى رأيهم - لايزال يتمنى القرب والمجاورة من معشوقه فإذا أتيح له ذلك تمنى الخلوة فإذا سهل ذلك تمنى مابعدها والشوق لاينقص بذلك بل يزداد وينمو كما قيل : (ص ٢٧٤) .

أعانقها والنفس بعد مشوقة	إليها وهل بعد العناق تدانى؟
وألثم فاها كى تزول صبابتى	فيزداد ماألقى من الهيمان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله	سوى مايُرى : زوجان ممتزجان[1]

وقد أفاضوا فى تأكيد معنى "الشوق إلى الاتحاد وامتزاج الروحين" وأن كل محب لشىء مشتاق إليه هائم به فإذا وصل إليه بلغ حاجته من الاستمتاع به والتلذذ بقربه، فإنه لابد مفارقه أو مملة، وتذهب تلك الحلاوة ويخمد لهيب الاشتياق إلا المحبين لله تعالى[2] .

---

(١) الأبيات لابن الرومى ، ويروى البيت الثالث : سوى أن يرى الروحين يمتزجان .

(٢) راجع إخوان الصفا ص٢٧٤ ، ٢٨٦ .

وتحمل رسالتهم أول إشارة صريحه نحو (الحب الأفلاطونى) حب الأستاذ للتلميذ ولهذا الحب عندهم أهداف تربوية، وهو نتاج أوضاع حضارية. (١)

وتعرض الرسالة (للعشق الصوفى والغاية من وجوده - في جبلة النفوس - من تنبيهها من الغفلة والعروج بها من الأمور الجسمانية إلى الأمور النفسية المعقولة، كما حاولت تفسير العشق وربطه بالفكر الإسلامى من خلال مذهبهم وحده، وهم وإن لم يعرضوا للجانب الأدبى فى دراستهم لنزعة الحب إلا أنهم كان لهم دور واضح فى توجيه الأذهان نحو (الحب العذرى) ربما من حيث لايشاءون (٢) .

والجدير بالذكر أن (للحب عند الصوفية) معنى آخر فهو حب للروح وللمعانى العقلية ، وهو "عقيدة أساسها الدعوة إلى تمجيد العاطفة والاعتماد على القلب ومايفيض به من شعور وإحساس وهذا أصل من أصولهم نشأت عنه كل خصائصهم التى اصطبغ بها أدبهم. وتأثروا بها كذلك فى سلوكهم .. والرومانتيكيون جميعاً يعتقدون أن العاطفة أصدق من العقل لأن العقل يتغير بحسب مايطرأ عليه من أحوال، ولكن العاطفة لاتتغير ومن هنا كثر حديث الرومانتيكيين فى أدبهم عن الحب وأضفى أكثرهم على الحب عاطفة التقديس وكثيراً ماكانوا يتحدثون فى شعرهم عن الحب على أنه شعور إلهى يسمو بالروح لأنه شريعة القلب الطاهر التى تقود إلى الله" (٣) .

- ٥ -

وللشيخ الرئيس أبى على بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧م) رسالة فى العشق تحوى سبعة مباحث (٤) والعشق عنده هو : النزوع إلى الكمال" وهو وسيلة لمعرفة الخير

---

(١) الحب فى التراث ص٢١١ .

(٢) راجع دراسات عن ابن حزم ص ٣٠٣ .

(٣) الحياة العاطفية د . محمد غنيمى هلال ص٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٤) أشهر شخصية فى عالم الطب بعد الرازى تبلغ مؤلفاته ٩٩ كتاباً .

ومرحلة تؤدى إلى مابعدها وهو العشق الإلهى، وهذا يعيد للذهن كلمة صوفية مرادها أنه لايصل إلى الحقيقة من لم يقطع إليها المجاز، والمجاز هو : الحب الإنسانى، والحقيقة هى : الحب الإلهى الذى يفضى إلى المعرفة فالاتحاد .

وتفسيره للعشق بأنه نزوع الأشياء إلى كمالها إنما يعنى الانبساط على كثير من مظاهر الكون . والحقيقة : أن الفلسفة الإسلامية ترى الحب ظاهرة تشمل مظاهر الكون ماأمكن ذلك، فإخوان الصفا - مثلاً - أخذوا ماأسموه "شدة الشوق إلى الاتحاد" فجعلوه صفة أساسية للحب وسعوا مااستطاعوا حتى طووا تحتها القوى الحيوية وغيرها وابن سينا جعل سريان العشق فى كل واحد من الهويات كما رأى وجود العشق فى الجواهر البسيطة غير الحية وكذلك يراه فى الموجودات ذات القوة الحيوانية .. ألخ[(١)] .

وليس فى رسالة ابن سينا "فى العشق" مايوحى بأنه يقيم أساساً فلسفياً للحب العذرى وليس فيها شاهد واحد على أنه كان يوجه نظره إلى الأدب بل إن الإحكام الدقيق فى عرض آرائه ينبنى بأنه كان يطبق مبدأه العام فى النفس وأجزائها على مشكلة أو ظاهرة بعينها ويحاول أن يجد لها مكانها الصحيح فى نظامه الفلسفى.. والحب فى ذاته لايمثل نقطة انطلاق فى تفكيره ، وحين يعرض له لايتناول صورة نزعة الحب فى الأدب، ولكن دراسته تقدم من بعض الوجوه الأسس النظرية التى تقوم عليها هذه النزعة الإنسانية"[(٢)] .

---

(١) راجع الحب العذرى ص١٢ ، ٢٣ وجامع البدائع لابن سينا ط السعادة ورسالته فى العشق ص٦٩ - ٧٠ .

(٢) دراسات عن ابن حزم ص٣٠٥ .

والخلاصــة : أن الروافد الأجنبية قد أمدت الدراسات العربية بكثير من الأقوال والتوجيهات وفتقت أمامها الكثير من المسائل والاحتمالات ولكنها لم تدخل فى جوهر النظرية العربية عن الحب، ذلك الجوهر الذى بقى عربياً إسلامياً فى حميمه وقد نجد أصداء مباشرة عند الفلاسفة الاسلاميين أو الأطباء، ولكن الذين ينبغى التنبيه إليه والحرص عليه أن (النظرية العربية) لم يضعها الفلاسفة ولم يضعها الأطباء وإنما وضعها الفقهاء"(١) .

-٦-

أما علماء النفس : ففريق منهم يرى أن الحب عاطفة ومنهم من يراه انفعالاً مركباً، والفارق بين الرأيين : أن الأولى مجموعة مرتبة من الانفعالات تدخل فيها عناصر عقلية وتمتاز بالاستقرار والثبات والثانى : عقدة أو تركيب انفعالى قوى فيه تركيز الانتباه إلى شىء بعينه مصدره الغريزة . والاختلاف بينهما ليس ضرورياً فقد يكونان مرحلتين فى الحب تسلم إحداهما إلى الأخرى، وهذا فيما يظهر أدنى إلى الصواب، فالحب فى أول ظهوره انفعال معقد مركب من دوافع غريزية أبرزها وأظهرها الدافع الجنسى الذى ينبعث عن الغريزة الحيوية التى ركبها الله فى الحيوان لحفظ النوع وكلما تقدم به الزمن انضافت إليه - إلى الانفعال المركب - عناصر من الحياة النفسية بعضها عقلى إرادى تقويه وتثبته فى النفس .(٢)

ويتضح الفارق بين الانفعال والعاطفة فى قول المجنون :

فشبَّ بنو ليلى وشبَّ بنو ابنها ... وأعلاق ليلى فى فؤادى كما هيا

فلو كان حبه لليلى مجرد انفعال من إعجاب أو استحسان أو غير ذلك من الانفعالات المؤقتة لانقضى الحب فى حينه أو بفراقها، لكن حبه قام على عاطفة باقية،

---

(١) الحب فى التراث العربى د . محمد حسن ص٢٣٦ .

(٢) الحب العذرى د . الجوارى ص١٥ - ١٦ .

وإن تزوجت وكبر أولادها وأولاد أولادها - فالحب القائم على العاطفة تغذية الروافد النفسية كالإعجاب بالمحبوب والغيرة عليه والظن به والخوف عليه وماإلى ذلك من مظاهر الانفعالات التى تعذى هذا الحب أو تلك العاطفة وكلما ازدادت العوائق أمامه ازداد هو صلابة وضراوة .

- وليس بدعاً أن يتحدث علماء النفس عن عملية الابداع العاطفى، فالصلة وثيقة دون شك، وهم كثيراً مااتخذوا الأدب مادة لموضوعاتهم النفسية فاستنبطوا من خلال دراستهم للأعمال الأدبية والفنية حقائق نفسية بالغة الأهمية، ويعترف فرويد ذاته بأن الأدباء هم الذين اكتشفوا قبله العقل الباطن أو اللاشعور، كما يرى ستانلى هايمن : أن النقد كله كان نفسياً بمجمله[١] .

وقد سلك علم النفس فى بحثه الحب سبيلاً غير التي سلكتها الفلسفة حيث عدل عن التعميم إلى التخصيص وشغل نفسه بما يقع تحت الحس ومايخضع للمشاهدة والتجربة فقصر همه على أعراض الحب وآثاره كما تظهر على بنى آدم وأعرض عن الكلام (**الميتافيزيقى العام**) إلا أن "فرويد" قد أغرق فى المادية حتى هبط بالحب إلى حضيض الشهوة الجنسية، وماإعترف بغيرها قوة تسير الإنسان مباشرة أو بالواسطة. ولعل ذلك جاء من إفراطه فى التعويل على التجربة المحسوسة.[٢]

كما رأى أن السلوك البشرى أساسه هو اللاشعور ومخزوناته من الدوافع المكبوتة التى تظل تفعل فعلها بشكل دائم، ويؤكد بأن الدوافع المكبوتة فى مرحلة الطفولة المشحونة بالانفعالات هى التى تحدد سمات الشخصية. ويدلل بعقدة أوديب التي تعنى لديه أن الطفل فى السنة الثالثة وحتى الرابعة يشعر نحو أمه شعوراً

---

(١) فى نظرية الأدب د . شكرى عزيز الماضى ص١٥٥ بتصرف ط بيروت .

(٢) الحب العذرى ص٢٣ .

جنسياً ولهذا تشتد غيرته من أبيه ويعتبره غريمه .. ومن هنا فإن اللاشعور أو العقل الباطن هو مصدر عملية الإبداع الأدبى، فالأديب عصابى أو مريض نفسياً وهو يبدع أدباً وفناً كوسيلة من وسائل التسامى، لذلك فإن الأعمال الأدبية فى جوهرها شواهد على مرض صاحبها النفسى لأنها تتضمن العقد والطباع والتأويلات الباطنية .. والجدير بالذكر أن هذه الفكرة قد شاعت وراجت كثيراً خلال المائة والخمسين سنة الماضية ويبدو أن علم النفس الحديث قد مدها بالمسوغات. (١)

ولعل هذا المعنى الشائع هو الذى دفع **الأطباء** قاطبة لأن يقرروا : أن العشق "مرض وسواسى شبيه بالماليخوليا يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والشمائل وسببه النفسانى الاستحسان والفكر" (٢) .

ويعدنا ابن حزم الأندلسى فى كتابه "طوق الحمامة" بمنهج نفسىّ شامل قام على الملاحظة الجيدة لأحوال المحبين والتحليل النفسىّ الدقيق لما وقعت عليه عيناه والاستقصاء لعوامل المحبة والهوى يستقرىء مايسجله ويثبته فى وقائع !

وقد هيّأ - لذلك - نشأته فى بيت متنعم تغدو فى أبهائه الجوارى وتروح فى أفنيته الحسان دون حجاب . ولنطالع ماقرره فى بيان مفهوم الحب حين يقول : "والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفس فى أصل عنصرها الرفيع"

وهو يفرق بين الحب للمعنى الروحى والحب للشهوة، فيرجع الأول للمشاكلة النفسية والاتفاق له والميول والطباع، والثانى إلى الاستحسان الجسدى والجمال الخلقى الذى يعتمد على الصورة والمظهر الخارجى وهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة، ثم يبين الارتباط الوثيق بين العشق والعفة فى عبارة خاطفة فيقول . "الصالحة من النساء

---

(١) راجع فى نظرية الأدب ص٠ ٢٥ .

(٢) روضة المحبين ص١٣٧ .

هى التى إذا ضبطت انضبطت، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت. والفاسدة هى التى إذا ضبطت لم تنضبط، فذلك هو الفيصل" وهو بهذا يعطينا الدليل على أن الإنسان هو الإنسان، لايمكن أن يتجرد من طبيعته البشرية وغريزته الشهوانية، ومن ثم فلابد من إحكام الزمام وسد أبواب الفتنة.(١)

والحق أن ابن حزم لم يضع بين أيدينا دراسة نظرية لما هية الحب بقدر ماوضع أبواباً فى فن الحب من الوجهة النفسية والتجريبية، وقد ناقش كأمر علماء النفس موضوعات السلوك الوجدانى فى إقباله وأدباره لأنه يدرك تماماً أهمية الدور الذى تلعبه الحياة الجنسية فى الصحة النفسية والجسمية للمحبين .. كان يدعم آراءه بالحالات الواقعية التى عرضت له أو عرضت لأصدقاء ومعارف له .. يعقب عليها بآرائه ويحللها إلى عواملها المتعددة ، ويرى أن الجهل بالمعنى الحقيقى للحب وللجنس الآخر عامل مهم يترتب عليه أخطاء مؤسفة فى حياة الفرد الجنسية(٢) .

(١) راجع مقدمة طوق الحمامة فى الألف والآلاف ط القاهرة ١٩٧٦ م .

(٢) الحب ومذاهبه النفسية والجمالية د . محمد الصادق عفيفى ص١٣٩ .

الباب الثانى

صدى العاطفة فى أدب الفقهاء

الفصل الأول

ظرفاء العشاق من الفقهاء

ليس المليح بكامل فى حسنه | حتى يكون عن الحرام عفيفا

فإذا تجنب عن معاصى ربـه | فهناك يدعى عاشقاً وظريفاً

قد يعجب القارىء للحديث عن (حب الفقهاء) ربما لانشغالهم بجد الأمور وانصرافهم إلى ماعرف عنهم من التقوى والورع والبعد عن الشبهات، وهذا خطأ لأن التقوى والورع لايميتان الغرائز ولايكبتان الدوافع الطبيعية ! وقد يعجب من يظن : "أن التفقه فى الدين والتنسك فى العبادة مما يمنع خفوق القلب بالهوى والتهاب الجوانح بالشوق! وهذا خطأ واضح لأن العواطف الإنسانية لاتكبت بدراسة الفقه والتفسير والحديث! ولكن هذه الدراسة فقط مما يساعد على إعلاء الغرائز وسمو العواطف فالفقيه العاشق أقرب إلى التصون غالباً من الأديب العاشق لأن له من فقهه الدينى وإحساسه بمكانته فى المجتمع مايسمو به عن الريبة والظن"(١) .

فالحب مما لايملك وقد أكد ذلك رسول الإنسانية (ص) بقوله فى حب عائشة: اللهم هذه قسمتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولاأملك"(٢) يريد (ص) أنه يطبق العدل بينهن فى النفقة عليهن والقسْم بينهن وأما التسوية بينهنّ فى المحبة فليست إليه ولايملكها . وقال رجل لعمر بن الخطاب : ياأمير المؤمنين إنى رأيت امرأة فعشقتها فقال "ذاك مما لايملك"(٣) وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلمانى عن قوله تعالى : "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم"(٤) فقال : يعنى الحب والجماع، وقال ابن عباس : لايستطيع أن يعدل بينهن فى الشهوة ولو حرص.(٥)

---

(١) الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير د . رجب البيومى ص١٥٧ .

(٢) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه بلفظ "هذا فعلى" وفى تفسير القرطبى ج٥ "اللهم هذه قسمتى" .

(٣) الحب العذرى موسى سليمان / ١٨ .

(٤) سورة النساء / ١٢٩ .

(٥) روضة المحبين / ١٧١ .

وقالت أم سلمة - رضى الله عنها - إن رسول الله (ص) كان إذا رأى عائشة - رضى الله عنها - لم يتمالك عنها أما أنا فلا ". وفرض عمر بن الخطاب لأمهات المؤمنين عشرة آلاف وزاد عائشة ألفين وقال : إنها حبيبة رسول الله (ص) . وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول رب العالمين المبرأة من فوق سبع سموات.[1]

فهذا الحب الذى لايملك من رسول الله (ص) يجعله بحق إنساناً صحيحا يأنس قلبه إلى الوجه الحسن ويشعر بالجمال كسائر البشر وصدق الله "قل إنما أنا بشر مثلكم".

ولم يكن الحب أو العشق من الكلمات المحرّمة أو المكروهة بل كانت تتداول بين الصحابة باللفظ والمعنى وتظهر فى السلوك والعلاقات دون أن تنال من وقارهم. فقد روى أن "عبد الله بن عمر" - رضى الله عنه - اشترى جارية رومية فكان يحبها حباً شديداً فوقعت ذات يوم عن بغلة له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفدّيها وكانت تقول له : أنت قالون ، تعنى (جيد) ثم إنها هربت منه فوجد عليها وجدا شديداً وقال:

قد كنت أحسبنى قالون فانصرفت فاليـوم أعلـم أنى غيـر قالـون[2]

والعشق المباح مما يؤجر عليه العاشق كما قال شريك بن عبد الله (وقد سئل عن العشاق) فقال : أشدهم حباً أعظمهم أجراً . وقد قيل :

لن يقبل الله من معشوقة عملا يومـاً وعاشقها لهفان مهجـور
ليست بمأجورة فى قتل عاشقها لكن عاشقهـا فى ذاك مأجـور

والعشق بلاء الصالحين ومحنة العابدين وهو خلق الكرام كما قيل :

ومـاأحببتهـا فحشـا ولكـن رأيـت الحـب أخلاق الكرام[3]

(١، ٢) روضة المحبين ص١٧١ ، ١٧٢ .

(٣) روضة المحبين ص١٧٣ ، ١٤٥ والآية / ٢٨٦ سورة البقرة .

عظماء الإسلام يشفقون على المحبين : فسّر كثير من السلف قوله تعالى : "ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به" بالعشق على سبيل التمثيل لاالتخصيص، وهو تحميل قدرى لاشرعى.(١)

وسمع الخليفة أبو بكر جارية تنشد غزلاً أشفق عليها من شدته، فسألها : من هويت ؟ فبكت ثم قالت :(٢)

وأنا التى لعب الغرام بقلبهـا　　　فبكـت لحـبّ محمـد بن القاسـم

فذهب إلى المسجد ودعا مولاها فاشتراها منه وبعث بها إلى حبيبها وقال : "هؤلاء فتن الرجال وكم قد مات بهن من كريم وعطب عليهن من سليم"

وروى الأصمعى عن ابن الخطاب : "لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما"(٣)

وشكت جارية لعلى بن أبى طالب حب شاب كان يؤذن لعلى واعترف بحبها فدعا به فزوّجه منها، ودفعها إليه(٤) .

وماهذا كله من الخلفاء الراشدين إلا إشفاقاً بقلوب رقيقة ابتليت بحب لايملك، وللصحابة فى رسولهم المثل والقدوة، فقد شفع الرسول (ص) لأحد العشاق عند محبوبته، كما روى البخارى فى صحيحه أن "مغيثا" عشق زوجته بعد فراقها، وقد صارت أجنبية منه بالعتق، فكان يمشى خلفها ودموعه تسيل على خديه فقال (ص) لها : لو راجعتيه، فقالت : أتأمرنى ؟ فقال (ص) إنما أنا شافع ، قالت : "لاحاجة لى فيه"(٥) .

---

(١) روضة المحبين ص١٧٣ ، ١٤٥ والآية / ٢٨٦ سورة البقرة .

(٢) المرجع السابق ص/١٧٢ .

(٣) مصارع العشاق جـ١/٢٦٤ .

(٤) الموشى للوشاء ص/٦٨ .

(٥) روضة المحبين ص١٤٣ .

فالرسول (ص) لم يأمرها لأنه حقها المكفول لها ولم ينه زوجها عن عشقها فى هذه الحال لأنه شىء لايملك ولايدخل تحت الاختيار. فالحديث : إقرار ضمنى بحق القلب فى الاختيار ولهذا قدمه (ص) على حق شفاعته وهو الشافع المشفع! .

من أجل هذا كله : سئل شريك بن عبد الله القاضى عن العشاق فقال : أشدهم حباً أعظمهم أجرا [١] .

إنكــار وتعليــق :

ونقرأ إنكاراً للشيخ "على الطنطاوى" فى مجلة الرسالة على من تعجب لحب الفقهاء ولنظمهم الشعر فيه، فيقول : [٢]

قال لى شيخ من المشايخ المتزمتين وقد سقط إليه عدد من الرسالة فيه مقالة لى عن الحب : مالك وللحب، وأنت شيخ وأنت قاضى وليس يليق بالشيوخ والقضاة أن يتكلموا فى الحب أو يعرضوا للغزل ؟ إنما يليق ذلك بالشعراء وقد نزه الله نبيه عن الشعر، وترفع العلماء وهم ورثة الأنبياء عنه وصرّح الشافعى أنه يزرى بهم ولولا ذلك لكان أشعر من لبيد .. فضحكت وقلت له : أما قمت مرة فى السحر فأحسست نسيم الليل الناعسى وسكونه الناطق، وجماله الفاتن، فشعرت بعاطفة لاعهد لك بمثلها ؟ .. أما سمعت مرة فى صفاء الليل نغمة عذبة من مغنّ حاذق قد خرجت من قلبه، فهزت منك وتر القلب ومست حبة الفؤاد ؟ .. أما قرأت مرة قصة من قصص الحب أو خبرا من أخبار البطولة فأحسست بمثل النار تمشى فى أعصابك وبمثل جناح الطير يخفق فى صدرك ؟!.

---

(١) الموشى ص/١٠٨ .

(٢) راجع الرسالة عدد ٦٦٤ فى ١٣٦٥/٤/٢١ هـ - ١٩٤٦/٣/٢٥م ص٣٢٢ ومابعدها .

من الذى يصف لذائذك النفسية، وآلامك، وبؤساك ونعماءك؟ لن يصورها اللغويون ولاالمحدثون، ولاالأطباء والمهندسون، كل أولئك يعيشون مع الجسد والعقل لايسرحون فى فضاء الأحلام ولايوغلون فى أودية القلب .. فمن هم أهل القلوب ؟

إنهم الشعراء ياسيدى وذلك هو الشعر .. ! ومن قال لك إن الله نزه نبيّه (ص) عن الشعر لأنه قبيح ؟

إنما نفى عنه أن يكون شاعراً كمن عرف العرب من الشعراء، وردّ عليهم قولهم: "إنه شاعر" .

لأن الشاعر يأتيه الوحى من داخل نفسه، والنبى يجيئه الوحى من السماء، وهذا الذى لم تدركه العرب فقالوا قولتهم التى ردّها الله عليهم ! وأين وجدت حرمة الشعر أو مذمته من حَيث هو كلام جميل، يصف شعوراً نبيلاً ؟ إنما يقبح إذا اشتمل على الباطل، كما يقبح كل كلام يشتمل عليه .

- ومن أين عرفت أن العلماء قد ترفعوا عنه ، والكتب مملوءة بالجيد من أشعارهم، فى الحب والغزل ووصف النساء ؟

أو ماسمعت بأنّ النبّى (ص) أصغى إلى كعب وهو يهدر فى قصيدته التى يتغزل فيها بسعاد .. ويصفها بما لو ألقى عليك مثله لتورعت عن سماعه .. وحسبت أنّ التُّقى يمنعك منه وذهبت تلوم عليه قائله :

وماسعاد غداة البين إذ برزت	إلا أغنُّ غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت	كأنها منهلّ بالراح معلول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرةً	لايشتكى قصر منها ولاطول

وأن عمر كان يتمثل بمثل ماتكره أنت من الشعر، وأن ابن عباس كان يصغى إلى إمام الغزلين عمر بن أبى ربيعة ويروى شعره؟ وأن الحسن البصرى كان يستشهد فى مجلس وعظه بقول الشاعر :

اليـوم عنـدك دلّهـا وحديثهـا   وغـداً لغيـرك كفّهـا والمعصـم

وأن سعيد بن المسيب سمع مغنياً يغنى :

تضوع مسكاً بطن نعمان أن مشتْ   زينـب فـى نسـوة خضـرات

فضرب برجله وقال : هذا والله مما يلذ استماعه ثم قال :

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها   وأبـدت بنـات الكـف للجمـرات

وعالـت بنات المسـك وحفـا مرجـلا   علـى مثل بدر لاح فى الظلمـات

وقامـت تـراءى يوم جمـع فأفتنـت   برؤيتهـا مـن راح من عـرفات

فكانوا يروون هذا الشعر لسعيد بن المسيب !

وظل الشيخ "طنطاوى" يسوق أخبار الفقهاء الظرفاء الذين كان لهم شعر أرق من النسيم إذا سرى وأعذب من ماء الوصال وهم كانوا أئمة الدين وأعلام الهدى، فعرض للشيخ المحدث الجليل "عروة بن أذينه" وروى له شعراً غزليا، كما عرض لـ "عبيد الله بن عتبة" أحد فقهاء المدينة السبعة الذين انتهى إليهم العلم، وكان عمر بن عبد العزيز يقول فى خلافته:[1] لمجلس بن عبيد الله لو كان حيا أحب إلىّ من الدنيا ومافيها. وانى لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله بألف دينار من بيت المال فقالوا : ياأمير المؤمنين تقول هذا مع شدة تحريك وشدة تحفظك ؟ قال : أين يُذهب بكم؟ والله إنى لأعود برأيه ونصيحته ومشورته على بيت المال بألوف وألوف ! وهو مع ذلك الشاعر الغزل الذى يقول :

تغلغـل حب عتمـة فى فـؤادى   فباديـه مـع الخافـى يسيـر

تغلغـل حيـث لـم يبلـغ شـراب   ولاحزن ولم يبلغ سـرور .. الخ

---

(١) ابن خلكان فى الوفيات .

ولم يكن يخفى مافى قلبه، بل كان إذا لقيه ابن المسيب فسأله : أأنت الفقيه الشاعر؟ فيقول : "لابد للمصدور من أن ينفث" فلا ينكر عليه ابن المسيب .

واستطرد الشيخ "طنطاوى" فى عدد تالٍ بقوله:[1] واسمع ياسيدى أنشدك مايحضرنى من "غزل الفقهاء" لااستقصى ولاأعمد إلى ترتيب : **هذا أبو السعادات** أسعد بن يحيى السبخارى الفقيه الشافعى ت (٦٢٢ هـ) اسمع من شعره ماترقص منه القلوب وتطرب الألباب حلاوة ألفاظ وبراعة معنى، وحسن أسلوب :

وهـواك ماخطر السلـو ببالـه ... ولاأنت أعلم فى الغـرام بحالـه

ومتـى وشـى واشٍ إليـك بأنـه ... سـال هـواك فـذاك من عُذالـه

أوليـس للكلـف المعنـى شاهد ... مـن حالـه يغنيـك عـن تسآله

جددتِ ثوب سقامه وهتكت ستـ ... ـر غرامه وصرمـت حبل وصالـه

أفزلـة سبقـت لـه أم خلـة ... مألوفـة مـن تيهـه ودلالـه

وهاك قول **ظهير الدين الأهوازى** الوزير الفقيه تلميذ أبى إسحق الشيرازى[2] .

وإنى لأبدى فى هواك تجلـدا ... وفـى القلب منى لوعـة وغليـل

فلا تحسبـن أنى سلوت فربمـا ... ترى صحـة بالمـرء وهـو عليـل

وقول **أبى القاسم القشيرى** الإمام الصوفى :

لـو كنـت ساعـة مابيننـا ... ورأيـت كيـف نكـرر التوديعا

لعلمت أن من الدمـوع محدثـا ... وعلمـت أن مـن الحديث دموعا

---

(١) راجع الرسالة عدد ٦٦٥ فى ١٣٦٥/٤/٢٨ هـ - ١٩٤٦/٤/١ م ص ٣٥٠ ومابعدها .

(٢) الوفيات جـ/٢ ص ٩١ .

والبيت الثانى من مرقصات الشعر. وكان مع ذلك علامة فى الفقه والتفسير والحديث ومن فقهاء الشافعية الكبار، ومن شعره :

ومن كان فى طول الهوى ذاق لذة ... فإنى من ليلى لها غير ذائق
وأكثر شىء نلته من وصالها ... أمانى لم تصدق كخطفة بارق

وهاك القاضى الجرجانى مؤلف (الوساطة) على بن عبد العزيز الفقيه الشافعى، الذى ذكره الشيرازى فى طبقات الفقهاء،[1] صاحب الأبيات المشهورة :

أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وإنى إذا مافاتنى الأمر لم أبت ... أقلّب طرفى إثره متذمما
ولكنه إن جاء عفواً قبلته ... وإن مال لم أتبعه لولا وربما
وأقبض خطوى عن أمور كثيرة ... وإذا لم أنلها وافر العرض مكرما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا ... مُحيّاه بالأطماع حتى تجهّما

وياليت كل عالم ينقش هذه الأبيات على صفحة قلبه .. أما غزله فسهلٌ حلو منه قوله :

مالى ومالك يافراق ... أبداً رحيل وانطلاق
يانفس موتى بعدهم ... فكذا يكون الاشتياق

وقوله :

قد برح الحب بمشتاقك ... فأوله أحسن أخلاقك
لاتجفه وارع له حقه ... فإنه آخر عشاقك

(١) الوفيات جـ/١ ص٤٠٨ .

وهاك **القاضي سوار** (الأصغر) بن عبد الله من أهل القرن الثالث الذى يقول:

سلبت عظامى لحمها فتركتها ... عوارى فى أجلادها تتكسرُ

وأخليت منها مخها فكأنها ... أنابيب فى أجوافها الريح تصفرُ

إذا سمعت باسم الفراق ترعدت ... مفاصلها من هول ماتتحذر

خذى بيدى ثم اكشفى الثوب فانظرى

بلى جسدى لكننى أتستر !

وليس الذى يجرى من العين ماءها ... ولكنها روح تذوب فتقطر

وهاك قاضى القضاة ابن **خلكان** المشهور، وكان يعشق الملك المسعود بن المظفر، وكان قد تيمّه حبه، قال القاضى التبريزى : كنت عنده فى العادلية (دار المجمع العلمى اليوم) فى بعض الليالى ، فلما انصرف الناس من عنده قال لى : نم أنت ههنا. وألقى علىّ فروة، وقام يدور حول البركة، ويكرر هذين البيتين :

أنا والله هالك ... آيس من سلامتى

أو أرى القامة التى ... قد أقامت قيامتى

ولما فشا أمره، منع الملك ابنه من الركوب، فاشتد ذلك على ابن خلكان فكان مما قال :

إن لم تجودا بالوصال تعطفا ... ورأيتم هجرى وفرط تجنبى

لاتمنعوا عينى القريحة أن ترى ... يوم الخميس جمالكم فى الموكب

لو كنت تعلم ياحبيبى ماالذى ... ألقاه من كمد إذا لم تركب

لرحمتنى ورثيت لى من حالةٍ ... لولاك لم يك حملها من مذهبى

فارحم فديتك حرقة قد قاربت ... كشف القناع بحق ذياك النبى

لاتفضحن بحبك الصب الذى ... جرعته فى الحب أكدر مشرب

ومن شعر **أبى الفضل الحصكفى**[١] الفقيه الشافعى :

أشكو إلى اللــه من نارين واحـدة	فى وجنتيه وأخرى منه فى كبدى
ومن سقامين : سقم قد أحـل دمى	من الجفون وسقـم حل فى جسدى
ومن ضعيفين : صبرى حين أبصره	ووده ويــراه النـاس طـوع يـدى

وقد أثارت هذه المقالة بعض القراء[٢] فكتب إضافة تؤكدها:[٣] إن المتصفح لتراجم العلماء ليرى فيها نفحات أدبية ولطائف شعرية تروع وتعجب : كان **أبو حازم الأعرج** من فضلاء التابعين وله فى الزهد والورع أخبار وأحاديث، وقد خرج يوماً يرمى الجمار فإذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها وألهتهم بجمالها فقال لها: ياهذه ، إنك بمشعر حرام وقد فتنت الناس وشغلتهم عن مناسكهم فاتقى الله واستترى، فإن الله عز وجل يقول : "وليضربن بخمرهن على جيوبهن" فقالت : إنى من اللاتى قيل فيهن :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها	وألقت على المتنين برداً مهلهــلا
من اللاء لم يحججن يبغين حسبة	ولكـن ليقتلـن البرىء المغفـلا

فقال **أبو حازم** لأصحابه : تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة أن لايعذبها الله بالنار . فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمنون، فبلغ ذلك الشعبى فقال : ماأرقكم ياأهل الحجاز وأظرفكم !!

أما والله لو كان من قرى العراق لقال أغربى عليك لعنة الله[٤] وهكذا تأخذ الأريحية هذا العابد المتزهد فيكـون مثلاً فى رقة العاطفـة وتقدير الجمال، فهو لم

---

(١) نسبة إلى حصن كيفافى العراق وأظنه المعروف اليوم بتل كيف .

(٢) الأستاذ على العمارى مدرس بالأزهر الشريف .

(٣) راجع الرسالة عدد ٦٧٨ فى ١٣٦٥/٨/٢ هـ - ١٩٤٦/٧/١ م.

(٤) زهر الآداب جـ١ / ٢١٠ المطبعة الرحمانية .

ينسك نسكاً أعجمياً ولاجفا طبعه وغلظ حسّه فيغمض عينيه ويسر أذنيه دون هذه البدائع . وربما بلغ الشعر ببعض الفقهاء إلى أكثر مما نتخيله ولكنها سجاحة النفس، وقوة تأثير الشعر فيها وقد ذكر صاحب نفح الطيب قال : خرج القاضى أبو عبد الله محمد ابن عيسى الأندلسى إلى حضور جنازة وكان لرجل من إخوانه منزل يقرب من مقبرة قريش فعزم عليه فى الميل إليه منزل وأحضر له طعاماً وغنت له جارية :

طابت بطيب لثاتك الأقداح	وزها بحمرة وجهك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه	نمت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها	فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتبها القاضى طربا على ظهر يده . قال الراوى : فلقد رأيته يكبر على الجنازة والأبيات على ظهر يده . !

ويستعرض الأستاذ على العمارى بأنماذج متعددة ثم يأتى بالإجابة الشافية فيقول : "وأظن أننا بعد هذه النماذج فى حلّ بأن نسوق إلى هؤلاء الذين يحرمون علينا طيبات القرائح، وثمرات الأدب هذا الذى روى عن شيخ من شيوخ قريش وسادتها ، فقد سئل أبو السائب المخزومى : أترى أحداً لايشتهى النسيب ؟ فقال : أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا !" وأبو السائب المخزومى ممن جمع بين شغف أهل المدينة بالغزل وظرف الفقهاء القراء :

فقد روى أبو الفرج فى أغانيه[١] أنه كان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة ومع ذلك كان (إذا استمع إلى مقطوعات الغزل طرب طرباً شديدا) فقد أنشده يوماً اسماعيل بن أبى أويس لقيس بن ذريح[٢] :

---

(١) الأغانى جـ١ / ٢٧٧ ط دار الكتب .

(٢) نسبت الأبيات لغير قيس ولعل الصوات ماأثبتناه راجع الزهرة / ٥٤ .

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ... ومن بعد ماكنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا وأصبح ناميا ... وليس إذا متنا بمنتقض العهد
ولكنه باقٍ على كل حادث ... وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

فحلف لايزال يقوم ويقعد حتى يحفظها ويرويها. (١)

وروى ابن عبد ربه أنه خرج يوماً هو وابن عتيق يتنزهان، فمال أبو السائب لبعض حاجته وعليه طويلته فانصرف دونها ! فقال له ابن أبى عتيق : مافعلتْ طويلتك ؟ قال : ذكرت قول كثير :

أرى الإزار على لبنى فأحسده ... إن الإزار على ماضم محسود

فتصدقت بها على الشيطان الذى أجرى هذا البيت على لسانه، فأخذ ابن أبى عتيق طويلته ورمى بها وقال له : أتسبقنى أنت إلى برّ الشيطان؟! (٢)

ومن الشعراء الفقهاء: القاضى عبد الوهاب بن على بن نصر ت (٤٢٢) هـ (٣) من أعلام المذهب المالكى من أهل بغداد وقد نبت به على عادة البلاد بذوى فضلها فغادرها إلى مصر وشيعه جمع من بغداد متأسفين لرحيله، فقال لهم : لو وجدت بينكم رغيفين فى كل يوم مافارقتكم، ثم قال عن بغداد :

فو الله مافارقتها على قلىً لها ... وانى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخلٍ كنت أرجو دنوّه ... وأخلاقه تنأى به وتخالف

---

(١) الأغانى جـ٩ / ١٩٦ .

(٢) الشعر والغناء فى مكة والمدينة د . شوقى ضيف ص/ ٩٥ ط دار المعارف بمصر .

(٣) راجع أدب الفقهاء ص٤١ ، ٤٢ .

ومن شعره الوجدانى، وقد ضمنه مسألة فقهية قوله :

ونائمـــة قبّلتهـــا فتنبّهـــت	فقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحدّ
فقلت لها إنـى فديتـك غاصب	وماحكموا فى غاصب بسوى الـردّ
خذيها وكفـى عن أثيم ظلامـة	وإن أنت لم ترضَىْ فألفاً على العدّ
فقالت قصاص يشهد العقل أنـه	على كبـد الجانى ألذّ من الشهـد
فباتت يمينى وهى هميان خصْرها	وباتت يسارى وهى واسطه العقـد
فقالـت ألـم تُخبـر بأنــك زاهـد	فقلت بلى مازلت أزهد فى الزهـد

والجدير بالذكر استغلال هذا الفقهية القاضى لمعلوماته الفقهية وتضمينها أبياته بما زادها طرافة وإطرابا، ولم يبعد بها عن صناعة الشعر، والمسألة هنا تتعلق بالغصب وحكمه : أن الغاصب إذا ردّ الشىء بحاله فلا تبعة عليه وهذا مانظمه القاضى وأبدع فيه وروى أبو السائب متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول :

"اللهم ارحم العاشقين واعطف عليهم قلوب المعشوقين . فقيل له فى ذلك ! فقال: الدعاء لهم أفضل من عمرة فى الجعرانة. (١)

ثم أنشد : (٢)

ياهجـر كـفّ عـن الهـوى	للعاشقيـــن يطيـب ياهجـر
ماذا تريـد من الذيـن جفونهـم	قرحـى وحشـو قلوبهم جمـر
متبلديـن من الهــوى ألوانهـم	مما تُجـنّ قلوبهــم صفـــر
وسوابــق العبرات فوق خدودهم	دررٌ تفيــض كأنهـــا قطــرا

---

(١) الجعرانة موضع بين مكة والطائف على سبعة أميال من مكة .

(٢) روضة المحبين ص/١٤٤ .

طرب الفقهاء لشعر الغزل :

وعلى غرار أبى السائب كان هناك كثير من الفقهاء المشاهير (يستمعون للغناء ويطربون لشعر الغزل) .

فقد طرب الجراحى أبى الحسن القاضى بالكرخ[١] فمع قضائه وكلامه الفخم وإطراقه الدائم، كان يغمز بالحاجب إذا رأى مِرْطا[٢] وأمّل قرطا، فإذا سمع جارية تدعى شُغلة تقول :

لابد للمشتــاق من ذكر الوطــن والـيـأس والسلـوة من بعـد الحزن

طرب ، وقيامته تقوم إذا سمعها ترجّع فى لحنها :

لو أنّ ماتبتليني الحادثـات بـه يُلقى على الماء لم يُشرب من الكدر

فهناك ترى شيبة قد ابتلت بالدموع وفؤاداً قد نزا إلى اللهاة مع أسف قد ثقب القلب وأوهن الروح وجاب الصخر[٣] وأذاب الحديد وهناك ترى والله أحداق الحاضرين باهته، ودموعهم متحدرة وشهيقهم قد علا رحمة له، ورقة عليه، ومساعدة لحاله وهذه صورة إذا استولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لاتملك وغاية لاتدرك لأنه قلما يخلو إنسان من صبوة أو صبابة أو حسرة على فائت أو فكر فى متمنى أو خوف من قطيعة أو رجاء لمنتظر .

كما طرب ابن صُبْر القاضى قبل القضاء على غناء دَرّة جارية أبى بكر الجراحى فى درب الزعفرانىّ التى لاتقعد فى السنة إلا فى رجب إذا غنت:[٤]

---

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ط بيروت جـ٢ / ١٦٨ .

(٢) المرط من ملابس النساء معروف .

(٣) جاب الصخر : قطعه .

(٤) الامتاع والمؤانسة جـ٢ / ١٧١ .

لست أنسى تلك الزيارة لما   طرقتنا وأقبلت تتسنى
طرقتْ ظبيةُ الرّصافة ليلا   فهي أحلى من جَسّ عوداً وغنّى

وطرب ابن **معروف** قاضى القضاة على غناء عُلَيّة إذا رجّعَتْ لحنها فى حلقها الحلو الشجىّ بشعر ابن أبى ربيعة(١)

أنيرى مكان البدر إن أفل البدر   وقومى مقام الشمس مااستأخر الفجر
ففيك من الشمس المنيرة نورها   وليس لها منك المحاجرُ والثغر

وطرب **الزهرى**(٢) على "خَلوبَ" جارية أبى أيوب القطّان إذا أهلّت واستهلت، ثم اندفعت وغنت :

إذا أردتُ سُلُواً كان ناصركم   قلبى وماأنا من قلبى بمنتصرِ
فأكثروا أو أقِلّوا من إساءتكم   فكل ذلك محمولٌ على القَدرِ
وضعت خدى لأدنى من يطيف بكم   حتى احتُقرتُ ومامِثلى بمحتَقرِ

وأبو عبد الله المرزبانى شيخنا إذا سمع هذا جُنّ واستغاث وشق الجيب وحولق(٣) وقال : ياقوم أما ترونَ إلى العباس بن الأحنف مايكفيه أن يفجرَ حتى يكفر؟ متى كانت القبائح والفضائح والعيوبُ والذنوب محمولة على القدر؟ ومتى قدّر الله هذه الأشياء وقد نهى عنها، ولو قدرها كان قد رضى بها، ولو رضى بها لما عاقب عليها، لعن الله الغزل إذا شيب بمجانة، والمجانة إذا قرنت بما يقدح فى الديانة .

ورأيت أبا صالح الهاشمى يقول له : هوّن عليك ياشيخ، فليس هذا كله على ماتظن، القدر يأتى على كل شىء، ويتعلق بكل شىء ويجرى بكل شىء وهو سر الله

---

(١) المرجع نفسه / ١٧٢ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة جـ٢ / ١٧٧ .
(٣) أى أكثر من قول لاحول ولاقوة إلا بالله .

المكتوم كالعلم الذى يحيط بكل شيء، وكل ماجاز أن يحيط به علم جاز أن يجرى به قدر، وإذا جاز هذا أن ينشره خبر، وماهذا التضايق والتحارج .. والشاعر يهزل ويجدّ ويقرب ويبعد، ويصيب ويخطيء، ولايؤاخذ بما يؤاخذ به الرجل الديّان والعالم ذو البيان. (١)

الحب عند الصوفية : أخبار الصوفية وأخبار العشاق الغرامية متشابهة، وشهداء الحب فى الحالين فتيان صباح الوجوه، مرهفو الحس والذوق والقلب، والصوفية قد شغلتهم كلمة "حب" فذكروها فى كل أناشيدهم، وكانت قطب الرحى الذى طاف حوله كل متصوف .

"وأغلب الظن عندى أن الصوفية ابتدأوا حياتهم بالحب الحسى، ثم ترقوا إلى الحب الروحى. والانتقال من حب الجمال إلى التصوف معقول، ولاسيما فى حالة الحرمان من المحبوب. والحرمان قد يكون من آثار التصوُّف والتجمل والعفاف، ثم يصير بأصحابه إلى الضعف فلا ترى منهم غير الأنين والحنين وكذلك كان العذريون، فهم فى الأغلب ضعفاء" (٢)

"ولقد كان التلاحم فى الفكرة العاطفية شديداً بين العذريين والمتصوفين ظهر أثر ذلك فى تأثير كثير من رجال التصوف بأبيات شعرية هى من إنشاد العذريين، فكثيراً ماردد الصوفيون بيت المجنون :

ترحلت ياليلى ولم أقضِ أو طارى ... ومازلت محزوناً أحنّ إلى دارى

---

(١) الامتاع والمؤانسة جـ٢ / ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) التصوف الإسلامى د . زكى مبارك جـ٢ / ١٨٩ .

لأنه يعكس حالات وجدانية تعتمل بها قلوبهم .. وهذه المعانى التى تدور حول الرحيل والحزن عند البعاد والحنين إلى الحبيب البعيد كلها ترتبط فى عرف الصوفية بالروح. (١)

ولقد تجاوز هذا التأثير نطاق الأدب العربى إلى الأدب الفارسى حيث تأثر الشاعر "عبد الرحمن الجامى" ت ١٤٩٢م بنزعة الحب الصوفى .. فى كتابه "مجنون ليلى" عندما تحدث عن تطور العاطفة التى ربطت بين "قيس" وليلاه فنراه ابتدأ بحب الجمال المطلق . يقول الجامى : "أحب المجنون ليلى حبا صوفيا لأنه هام بها أولاً، ولكنه ارتقى من الحب الجسدى إلى الحب الروحى فنفذ من وراء جمال الجسد إلى مايدل عليه ذلك الجمال من معان روحية.." (٢)

وتمرس الصوفيةَ بالحب فى مطلع شبابهم هو السر فيما يظهر عليهم من معانى الظرف وقد أشرت فى بداية هذا الفصل إلى موقف "أبى حازم الأعرج" الصوفى مع المرأة الحاسر التى فتنت الناس بجمالها فى البيت الحرام .

بل رأينا من الصوفية من يعتذر بأن الهوى قد غزا قلبه لحكمة إلهية فيقول : إن الله جلّ ثناؤه إنما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوونه، وليشق عليهم سخطه، ويسرهم رضاؤه، فيستدلوا بذلك على قدر طاعة الله عز وجل .. (٣)

وهم يقيسون الحب الروحى بالحب الحسىّ فيقولون : إذا استولى الحب أدهش عن إدراك الألم .. وقد سمع أبو الفتح الأعور الصوفى هذا البيت :

وجهك المأمول حجتنا ... يوم يأتى الناس بالحجج

---

(١) الأدب الصوفى تاريخاً وفنا د . عبد الوارث الحداد ص/٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص/٨٤ .

(٣) الزهرة ص/٥٧ .

فتواجد وصاح ودق صدره إلى أن أغمى عليه وسقط، فلما انقضى المجلس حركوه فوجدوه ميتاً، فغسّلوه ودفنوه.[(١)]

وكان الشيخ "محى الدين بن عربى" ت (٦٣٨ هـ) أعظم شعراء الوجد والغرام من الفقهاء الصوفيين وله ديوان سماه "ترجمان الأشواق" فيه كل معنى بديع من شعر الغزل والنسيب والحب الإلهى، إلى جانب رصيده فى الميادين الفقهية والصوفية[(٢)].

والتصوف ذاته انتقال من حال إلى حال، انتقال من عالم الأرض إلى عالم السماء.. وقد وفد ابن عربى على الحجاز وهو فى الثامنة والثلاثين وهى سن محفوفة بالأشواك لأنها صلة بين دنيا الشباب ودنيا الكهول .. فاتصل حبله برجل من أهل العلم فى مكه، وكان لذلك الرجل بُنيَّة خفيفة الظل عذبة الحديث، فملكت عليه أقطار روحه وسارت به فى شعاب الهوى العذرى .

ولنتركه يصف تلك الفتاة بقلمه :

"كان لهذا الشيخ - رضى الله عنه - بنت عذراء، طفيلة هيفاء، تقيد النظر، وتزين المحاضر، وتحيرّ المناظر، تسمى بالنظام، وتقلب بعين الشمس والبهاء من العابدات العالمات السابحات الزاهدات .. إن أسهبت أتعبت وإن أوجزت أعجزت وإن أفصحت أوضحت، إن نطقت خرس" قس ابن ساعدة" وإن كرمت خنس "معن بن زائدة" وإن وفت قصّر "السموءل" خطاه، وأغرى بظهر الغرور فامتطاه، ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض، السيئة الأعراض، لأخذت فى شرح ماأودع الله تعالى فى خلقها من الحسن وفى خلقها الذى هو روض المزن.."

---

(١) التصوف الإسلامى ص١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) هو محمد بن على بن أحمد بن عبد الله الحاتمى من ولد عبد الله بن حاتم أخى عدى بن حاتم يكنى أبا بكر ويلقب بمحى الدين ويعرف بالحاتمى وبابن عربى بدون ألف ولام كما اصطلح عليه أهل المشرق، فرقا بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى (نفح الطيب جـ١ / ٥٦٩).

وابن عربى يتحدث حديث الرجل العفيف وهو عندنا صادق، ولكن ذلك العفاف هو الدرجة الأولى بين هوى الأرض وهوى السماء، هو بداية العزوف عن المتعة الحسية والإقبال على المتعة الروحية، هو طليعة الإيمان بأن للحب غاية غير نعيم الحواس .

إن ابن عربى كان رجلاً مقهور النزوات .. محبوساً عن اللذات الحسية فاندفع يطوف حولها فى رحاب عقلية لها رونق ورواء .. كانت الشهوات الحسية تطارده أينما توجه، وكانت تطالعه فى صور موشاة بالتهاويل فكان يلتمس المخرج بالتعلق بأذيال التفاسير والتآويل : لأنه انغمر فى عالم المجد .. وإليكم هذه الرؤيا، ففيها المقنع لمن يزعم أنه فى مقدور المتصوف أن يخلص كل الخلاص من عالم الحس .

حدث ابن عربى عن نفسه قال :

"رأيت ليلة أنى نكحت نجوم السماء كلها فما بقى منها نجم إلا نكحته بلذة.. وعرضت رؤياى هذه على من عرضها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها وقلت للذى عرضتها عليه لاتذكرنى، فلما ذكر له الرؤيا استعظمها وقال : هذا هو البحر العميق الذى لايدرك قعره، صاحب هذه الرؤيا يفتح له من العلوم من العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب مالا يكون فيه أحد من أهل زمانه" وأين هذه الرؤيا البهلوانية من رؤيا يوسف إذا قال لأبيه :

"ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين" (١)

ويعود ابن عربى إلى فتاته الأصبهانية التى عرفها بمكة فينظم فيها قصيدة رائعة يمزج فيها بين العذرية والصوفية من ذلك قوله : (٢)

---

(١) راجع التصوف الإسلامى جـ١ ص١٣٥ - ١٤١ والآية / ٤ سورة يوسف .

(٢) أدب الفقهاء ص٩٥ .

مرضى من مريضة الأجفان   عللاني بذكرها عللاني
هفت الورق في الرياض وناحت   شجو هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تتهادى   من بنات الخدور بين الغواني
طلعت في العيان شمسا فلما   أفلت أشرقت بأفق جناني

وقوله :

ومن عجب الأشياء ظبي مبرقع   يشير بعناب ويومي بأجفان
ومرعاه مابين الترائب والحشا   وياعجب من روضة وسط نيران
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة   فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف   وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين (الحب) أني توجهت   ركائبه، فالحب ديني وإيماني

والأبيات الثلاثة الأخيرة ترجمت - لشهرتها - إلى كل اللغات الحية من شرقية وغربية وهي تدل على روح إنسانية عالية تحتضن سائر العوالم بالحب الذي لاينضب معينة ولايمنع من ورده أحد.(١)

وعلى غرار هذا اللون من الحب فقرأ قصيدة للشيخ "عبد الله بن القاسم الشهرزوري الملقب بالمرتضى يصف فيها رحلة له في عالم الغيب طلبا للحقيقة الربانية. منها:(٢)

لمعت نارهم وقد عسعس الليـ   ـل ومل الحادي وحار الدليل
فتأملتها وفكري من البيـ   ـن عليل ولحظ عيني كليل
وفؤادي ذاك الفؤاد المعنى   وغرامي ذاك الغرام الدخيل

---

(١) المرجع نفسه ص٩٩ .
(٢) أدب الفقهاء ص/١٠٢ .

ثم قابلتهـا وقلـت لصحبـي ... هـذه النار نار ليلى فميلـوا

فرموا نحوها لحاظـا صحيحـا ... ت فعادت خواسئا وهى حـول

والقصيدة طويلة أثبتها ابن خلكان فى وفيات الأعيان وأثنى عليها، وهى من عيون الشعر الرمزى فى العربية .

وفى هذا الباب شعر كثير لأبى مدين الششترى والبكرى والنابلسى والبرعى والحراق. والأخير مغربى قلما يعرف شعره فى المشرق مع أنه صاحب ذوق سليم وصنعة محكمة، ومن أشعاره التى ضمنها قول المجنون، قوله:(١)

أماطـت عن محاسنها الخمـارا ... فغـادرت العقول بها حيـارى

وبثت فى صميـم القلب شوقـا ... توقّـد منـه كل الجسم نـارا

وألقـت فيـه سـرا ثـم قالـت ... إذا ذكـر الحبيـب لديه طـارا

به لعب الهوى شيئـاً فشيئـاً ... فلـم يشعر وقـد خلع العذارا

إلى أن صار غيباً فى هواهـا ... يشيـر لغيرهـا ولهـا أشـارا

يغالط فى هواها الناس طـراً ... ويلقـى فى عيونهـم الغبارا

ويسأل عن معارفها التـذاذا ... فيحسبه الورى أن قـد تمـارا

ولو فهموا دقائـق حب ليلـى ... كفاهـم فى صبابتـه اختبارا

إذا يبدوا مرؤ من حىّ ليلـى ... يـذلّ لـه وينكسـر انكسـارا

ولولاها لما أضحـى ذليـلا ... (يقبـل ذا الجـدارا وذا الجدارا

وماحب الديار شغفـن قلبـى ... ولكن حب من سكن الديـارا)

ومن لطيف الغزل قول القاضى عياض .

رأت قمـر السمـاء فاذكرتنى ... ليالـى وصلهـا بالرقمتيـن

كلانـا ناظـر قمـرا ولكـن ... رأيـت بعينهـا ورأتْ بعينـى

(١) المرجع نفسه ص١٠٣ .

ولهذين البيتين شهرة كبيرة بين الأدباء حيث تضمنا صنعة بيانية عجيبة مبنية على خيال بارع جعلتهما يمثلان نوعاً فريداً من الرمزية فى الأدب العربى، فقوله (كلانا ناظر قمرا) هو أعم من أن يراد به قمر السماء فعقب بما يفيد أن هناك قمرين، المحبوبة والقمر الحقيقى، لكنه يرى المحبوبة هى القمر الحقيقى، لذلك كان ينظر إليها بعينها هى التى تنظر إلى قمر السماء وهو المجازى عنده، فلذلك جعل المحبوبة تنظر إليه بعينه هو التى ينظر إليها بها وذلك قوله : (ولكن رأيت بعينها) وقوله (ورأت بعينى) ولاشك أن تخيله هذا إغراق فى هوى المحبوبة .

وبعد : فلعلى أسرفت فى إيراد مثل هذا الشعر الرمزى ولايظن القارىء أن الفقهاء برعوا فى هذا النوع دون غيره من شعر العاطفة والوجدان بما يضاهى فحول الشعراء (غزلا ونسيبا) .

والحق أنهم برعوا فى هذا وذاك فكان لهم أدب يستحق الدراسة والخلود، ولهذا عقدت الفصل التالى : أعلام الشعر الوجدانى .

* * * *

الفصل الثانى
أعلام الشعر الوجدانى من الفقهاء

إذا لم تستطع أن تكون محبوبا ...

فاجتهـد أن تكـون مُحبّـا !

رأينا كيف كان للدين الإسلامى أثر بارز فى تأصيل الحب العذرى وجعله ظاهرة اجتماعية شغف بها كثير من المسلمين لاسيما أهل مكة والمدينة، وزاد شغفهم به حتى غشي منازل الأشراف والنبلاء، وتعلق به الرجال والنساء على السواء.[١]

فلا عجب أن يتعلق به جماعة من الفقهاء وهم ذوو تصون وعفاف حتى اشتهروا بالخفة، وضرب بهم المثل فى ذلك فقيل : "أظرف من فقيه" ومن أشهر هؤلاء:

(١)

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود:[٢] أحد وجوه الفقهاء الذى روى عنهم الفقه والحديث وأخو عون وعبد الرحمن، وكان عون من أهل الفقه والحديث وجده عتبه أخو عبد الله بن مسعود الصحابى المشهور. وشاعرنا : محدث روى عن عائشة أم المؤمنين، وأبى هريرة، وابن عباس ، وابن عمر، وأبى سعيد الخدرى، والنعمان بن بشير وغيرهم، كما روى عنه : عون وابن شهاب الزهرى وأبو الزناد ، وكان ابن عباس يقدمه ويؤثره، وقال عنه الزهرى : "سمعت من العلم شيئاً كثيراً، فلما لقيت عبيد الله كأنى فى شعب من الشعاب فوقعت فى الوادى" ويقول عنه عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل : "لو كان عبيد الله .. حياً ماصدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لى بيوم من عبيد الله غرما" توفى مابين عامى ٩٨ - ٩٩هـ .

قصة حبه : كان عبيد الله رقيق الطبع مرهف الحس والوجدان، وقد هيأه ذلك لأن يصبح من شعراء الغزل، ولأن يقع فى قصة غزلية طريفة : فقد تزوج بامرأة جميلة قد أقبلت إلى المدينة من ناحية مكة، تدعى "عثمة" ثم عتب عليها فى بعض

---

(١) راجع الفصل الأول من البابين السابقين والشعر والغناء د . شوقى ضيف ص٩٤ - ١٠٤ .

(٢) الأغانى جـ٩/١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٨ ط دار الكتب .

الأمر فطلقها ثم ندم على طلاقها إذ كان يحبها حباً شديداً ولكن شاء القدر أن تخرج من يده ولم يستطع إرجاعها فتولع بها وهام بحبها وتلكف فى ذلك ألواناً من الخطوب يبثها شعره، ويشهد على حبه فقهاء المدينة حينئذ، فيقول :[1]

أحبك حباً لو علمتِ ببعضه ... لجدت ولم يصعب عليك شديد
أحبك حباً لايحبك مثله ... قريب ولافى العاشقين بعيد
وحبك ياأم الصبى مد لهى ... شهيدى "أبو بكر" فذاك شهيد
ويعلم وجدى "قاسم بن محمد" ... و "عروة" ماألقى بكم و "سعيد"
ويعلم ماعندى "سليمان" علمه ... و "خارجة" يبدى بنا ويعيد
متى تسألى عما أقول فتخبرى ... فلله عندى طارف وتليد

فبلغت أبياته "سعيد بن المسيب" فقال : والله لقد أمن أن تسألنا، وعلم أنها لو استشهدت بنا لم نشهد بالباطل"

هكذا يُشَهِّد على حبه فقهاء المدينة السبعة وهم : (أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، وعروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار وخارجة بن ثابت) .

والرواه لايفصحون عن تفاصيل الزواج أو الطلاق أو الإرجاع من عدمه، ولكن شعره ينم عن حالات نفسية متباينة، طالما كان شعره تنفيساً عنها، وكشفاً عما يكنه فى نفسه من حب عميق لها من ذلك قوله :[2]

كتمت الهوى حتى أضربك الكتم ... ولامك أقوام ولومهم ظلم
ونم عليك الكاشحون وقبلهم ... عليك الهوى فقد نم لو نفع النم

---

(١) الأغانى جـ٩ / ١٤٩ .

(٢) الأغانى جـ٩/١٤٩ وأدب الفقهاء ص٢٨ .

وزادك إغـراء بها طـول بخلهـا | عليك وأبلى لحم أعظمك الهم
فيامن لنفـس لاتموت فينقضـى | عناها ولاتحيـا حياة لها طعـم
أأتـرك إتيـان الحبيـب تأثمـا | ألا إن هجران الحبيب هو الإثم!
فذق هجرها قد كنت تزعـم أنـه | رشاد ألا ياربما كـذب الزعـم

أرأيت عاطفة أقوى من تلك العاطفة التى تغلب الفقيه على فقهه، فيلوم نفسه على هجران مطلقته، وهو يعلم أن زيارتها فى الشرع إثم، إنه لايملك إلا أن ينقاد لحبه، قائلاً "ألا إن هجران الحبيب هو الإثم"! .

لقد كتم "عبيد الله" هواه فلم ينفعه كتمانه بل أضر به، فأعلن حبه بين الناس فمن لائم لايعذر ! ومن كاشح مغرى بالنميمة شماته ! وغير ذلك مما دعاه لأن يتمنى الموت حتى يخلص من تلك الحياة التى لايجد معها راحة، ولاطعما، لكنه يتراجع عن تلك الوساوس ، ويصرخ من أعماقه إلى محبوبته (منية نفسه، وسلوة فؤاده) ليعلن أن هجران الفؤاد خوف الإثم هو عين الإثم .. ولنستمع إليه، وهو يحترق حسرة ولوعة فيقول :(١)

لعمرى لئن شطـت بعثمة دارها | لقد كدت من وشك الفراق أليـح
أروح بهـم ثم أغـدو بمثلـه | ويحسب أنى فى الثياب صحيح
غراب وظبى أعضب القرن ناديا | بصـرم وصردان العشى تصيح

كما نلمس معاناته، وصدق مشاعره، وهو يقول :(٢)

تغلغل حب "عثمة" فى فؤادى | فباديـه مع الخافـى يسيـر
تغلغل حيـث لم يبلغ شـراب | ولاحـزن ولم يبلـغ سـرور

---

(١) الأغانى جـ٩ / ١٤٩ .

(٢) المرجع السابق جـ٩ / ١٥١ .

صدعــت القلب ثم ذررت فيــه   هــواك فليم فالتـام الفطـور
أكـــاد إذا ذكرت العهد منهـــا   أطيـــر لو أن إنسانا يطيرا

أرأيت أعمق من هذا الحب ؟ أو أعلق منه بالقلب ؟ أو أطهر منه نفسا ؟ إنه يؤكد وفاءه لزوجته، إنه ليس بحاجة إلى حب جديد، فهو غنى بحبها عن حب غيرها، وهو يجيب على لائمة فى حبه بقوله : "فى اللدود راحة المفؤود" وقد وصف ابن عباس حب عبيد الله بقوله : "هذا قتيل الهوى لاعقل ولاقود" (١)

وبعد : فهذا مثل لغزل فقيه، لاتلم به نزوات البدن، يسمو بحرارة العاطفة إلى عنان الطهر والنقاء، ربما فاق عشق العذريين لأنه عرف (لذة الوصل والتلاقى) ثم ابتلى بغصة البعد والفراق.!

ويجب ألا يستغرب القارىء مثل هذه الأشعار وهذا الحب من فقيه وإمام تابعى جليل إذا علم ماكان عليه مجتمع المدينة فى الصدر الأول من حياة سمحة سهلة .. والقوم كانوا أكثر تفهما لروح الإسلام منا اليوم ، فلم يكونوا يدعون التصون وهم يرتعون فى المخالفات، ولكنهم كانوا على رقة العاطفة وسلامة الذوق فى منتهى العفة والصون. والإنسان لايسأل عما لايملكه من ميل القلب. (٢)

(٢)

عروة بن أذينة : يحيى بن مالك الليثى الكنانى، يكنى أبا عامر، وهو معدود فى الفقهاء والمحدثين، وكان عالما ناسكاً، روى عن عبد الله بن عمر، كما روى عنه الإمام مالك فى الموطأ وروى عنه عبيد الله بن عمر .

---

(١) طوق الحمامة ص/٧ .
(٢) أدب الفقهاء ص/٢٩ .

وهو من شعراء المدينة المقدمين، ومن فحول الشعراء، عاصر أكثر الخلفاء الأمويين، وتوفى فى حدود الثلاثين ومائة للهجرة. (١)

شغل الناس بشعره فى الحب ، وكان كابن أبى ربيعة فى تعلق النساء والمحبين بشعره إلا أنه لم يكن مثله فى المجون والاستهتار بل كان على جانب من التصون والتدين "ولم يكن إقبال المغنين على شعر عروة إلا لما فيه من معان ترضى أذواق السامعين وموسيقى تلائم ألحان المغنين، وقيمة فنية وشعرية تعبر عن روح العصر وتمثل العواطف الجياشة والأحاسيس المرهفة ..

وهو يستعير صوره وتشبيهاته من معالم الإسلام، ومواضع العبادة فيه ففى قصيدة يذكر موسم الحج وأيام النفر الثلاثة فى منى، والبيت الحرام، وزمزم والحطيم، وذلك فى قوله متغزلا : (٢)

لبثوا ثلاث منى بمنزل غبطـــة	وهـم على غرض لعمرك ماهـم
متجاوريـــن بغير دار إقامـــة	لو قـد أجد رحيلهم لم يندمـوا
ولهن بالبيـــت العتيـق لبانـــة	والبيـــت يعرفهـن لو يتكلـم
لو كان حيـا قبلهـــن طعائنـــا	حيـا الحطيـم وجوههن وزمزم
وكأنهـن وقـد حسرن لواغبـا	بيـض بأكنـاف الحطيـم مركم

ولئن أخذ عليه أبو السائب المخزومى فيها عدم ندمه على رحيلهن، فإنه غفل عن أن الرجل ذو طبع مدنى رقيق وقد اكتفى بهذا اللقاء الموقوت الذى بلغ فيه من آل نفسه ماسيكون متعة له يتملى بها إلى لقاء آخر مأمول. (٣)

---

(١) راجع شعر عروة بن أذينة ص١٣ ومابعده .

(٢) المرجع نفسه ص/ ٤٠ .

(٣) أدب الفقهاء ص / ٢٦ .

وغزل عروة مهيأ للغناء حيث كان يوقعه، ويحدث فيه من التقطيعات والتمديدات الموسيقية، وله من ذلك قيم صوتية كثيرة أقبل عليها المغنون حينذاك. من أمثال ابن عائشة[١] روى أبو الفرج : أن ابن عائشة نزل بقصر ذى خشب ومعه مال وطيب، ثم نظر فإذا بنسوة يتمشين فى ناحية الوادى فقال لأصحابه : هل لكم فيهن؟ قالوا : كيف لنا بهن ؟ فنهض فلبس ملاءة مدلوكة ثم قام على شرفة من شرف القصر، فتغنى فى شعر ابن أذينة :

سليمى أزمعت بينا ... فأين تقولها أينا؟
وقد قالت لأتراب ... لها زهر تلاقينا
تعالين فقد طاب ... لنا العيش تعالينا
إلى خود منعمة ... خففن بها وفدّينا
تمنين مناهن ... فكنا ماتمنينا

فأقبلن إليه، وطرب ، فاستدار، فسقط فمات.[٢]

روى الأغانى قال : مر ابن عائشة بابن أذينه فقال له : قل أبياتاً هزجا أغن فيها، فقال له اجلس، فجلس فقال :

سليمى أزمعت بينا .... الأبيات

قال أبو غسان : فحدثت أن ابن عائشة رواها ثم ضحك لما سمع قوله :

تمنين مناهن ... فكنا ماتمنينا

ثم قال له : ياأبا عامر، تمنينك لما أقبل بخرك وأدبر ذفرك، وذبل ذكرك، فجعل يشتمه[٣] وذكر عروة عند عمر بن عبد العزيز فقال : نعم الرجل أبو عامر على أنه يقول :

---

(١) محمد بن عائشة : لم يعرف له أب فنسب إلى أمه وهى مولاة لكثير بن الصلت .
(٢) الأغانى جـ٢ / ٢٣٧ .
(٣) د . الجبورى / ٣٩٨ .

وقـــد قالـــت لأتـــراب ... لهـــا زهـــر تلاقينـــا[(١)]

ومن أبيات عروة السائرة، والتى ذكرها له صاحب الحماسة قوله: [(٢)]

إن التـى زعمت فـؤادك ملهـا ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغهـا ... بلباقـــة فأدقهـــا وأجلهـــا

حجبت تحيتها فقلت لصاحبـى ... ماكـــان أكثرهـا لنا وأقلهــا

وإذا وجدت لها وساوس سلـوة ... شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها

لما عرضـت مسلما لى حاجـة ... أرجـو معونتها وأخشـى دلّها

منعت تحيتها فقلت لصاحبـى ... ماكـان أكثرهـا لنـا وأقلهـا

فدنـا فـقال لعلهـا معـذورة ... مـن أجل رقبتها فقلت لعلهـا

وهذه الأبيات من عيون الشعر وأحسنه تعبيراً عن عاطفة الحب الدفين، وهو حب مهذب وإن كان راسخ الجذور يمثل مجتمع المدينة الراقى، كما يمثل نفسية صاحبه (الفقيه) . وانعكاس البيئة واضح فى وصف المحبوبة، ونشأتها الباكرة فى النعيم الذى صاغها فأدق منها ماينبغى أن يدق وأجل منها ماينبغى أن يجل، كما يتضح ورعه إذا عرض له منها مايوجب ريبة أو يوسوس بسلوة، "فما كان أكثرها لنا وأقلها" إنه الاعتذار عن التحية التى حرمته منها، وشفاعة الضمير هى الكفيل بطرد مايساور فؤاده من وساوس السلو لو كان ممكنا . وبهذا التفكير الارستقراطى فى الحب - إن صح التعبير- الذى يبرز ماكان عليه الرجل من تهذيب رفيع، وماكانت عليه الحياة فى "المدينة" من تفتح وازدهار، ثم بحسن صياغتها سارت هذه الأبيات كل مسار، وماتزال

---

(١) الأغانى جـ٢/٢٣٩ .

(٢) الأبيات بأدب الفقهاء ص٢٤ والرسالة عدد ٦٦٤ ص٣٢٣ فى ١٣٦٥/٤هـ بتقديم وتأخير فى بعض الأبيات . و د . الجبورى ص٣٦٠ .

من غرر الشعر العاطفى وإن كان القائل فقيهاً. وقد بلغ من إعجاب الناس بها أن أبا السائب لما سمعها، حلف أنه لايأكل بها طعاما إلى الليل(١).

ومرت سكينة ابنة الحسين بن على بعروة بن أذينة وهى فى موكبها ومعها جواريها، فقالت : ياأبا عامر ! أنت تزعم أنك لم تعشق قط وأنت تقول :

قالت وأبثثتها وجدى فبحت به | قد كنت عندى تحب الستر، فاستتر
ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لها | غطى هواكِ وماألقى على بصرى

كل من ترى حولى من جوارى أحرار إن كان خرج هذا الكلام من قلب سليم قط. فهذان قد كتما هواهما فنمت شواهد نجواهما، لأن من اغتمس فى بحر الهوى نمت عليه شواهد الضنى، فأما أهل الدعاوى الباطلة الذين ليست أجسامهم، ولاألوانهم بحائلة، ولاعقولهم بذاهلة، فهم عند ذووى الفراسة يكذبون، وعند ذوى الظرف لصحتهم يوبخون.(٢)

كما حكى ابن عبد ربه فى (عقده) أن امرأة وقفت عليه وهو فى مجلسه فقالت له : أنت الرجل الصالح الذى تقول :

إذا وجدت أوار الحب فى كبـدى | عمـدت نحـو سقـاء الماء ابترد
هبنـى بـردت ببرد الماء ظاهـره | فمن لنار على الأحشاء تتقـد؟

لا والله ماقال هذا رجل صالح ! وعلق ابن عبد ربه على قولها بهذه العبارة القاسية : "كذبت عدوة الله، عليها لعنة الله .. بل لم يكن مرائياً ولكنه كان مصدورا فنفث"(٣).

---

(١) راجع أدب الفقهاء والرسالة العدد المذكور والصفحة نفسها .

(٢) الموشىّ للوشاء ص٧٧ .

(٣) أدب الفقهاء ص٢٦ ، ٢٧ .

هكذا دخل شعر "عروة" فى عقائل النساء، فى خدورهن وهيج منهن مكامن الهوى فانبرين يؤنبنه، وفى تأنيبهن اعتراف بالقين منه ولقى منهن .. والصورة فى هذين البيتين جميلة ومغرية بصدقها وبساطتها، لذلك أثارت من صاحبة الرجل الصالح ماأثارت! والبيتان أيضاً يشيران إلى أنه لم ينطق بهما تقليداً بل عن شعور وحب صادق أوقد فى قلبه نارا لايطفئها إلا الوصال، والوصال الذى يحبه ذلك الفقيه هو مايحبه الله ورسوله .

وعروة ممن ابتلى بآفات الحب من نحو رقيب وواشى وهجر، من ذلك قوله : (١)

صرمت سعيدة ودها وخلالها	منا وأعجبها البعاد فما لها
سمعت من الواشى البعيد بصر منا	قولا فأفسدها وغير حالها
ولقد بلوت وماترى من لذة	فى العيش بعدك قربها ووصالها

والقصيدة إحدى قصائده الطوال والتى تزيد على خمسة وثمانين بيتاً .

واللافت للنظر فى غزل هذا الفقيه : هو تعدد أسماء المحبوبة من مثل : سعدى وسعيدة ورقاش وعثمة وأم عاصم .. وهذا - فى رأى - يحتمل عدة أمور: فربما كانت كلها أسماء لمحبوبة واحدة ، لعلها "سعدى" حيث كانت أكثرهن ذكرا فى شعره .

وربما جرى هذا التعدد على عادة التجريد فى الشعر العربى، وربما كان يصطنع ذلك للغناء والمغنين، وقد عرف -كما ذكر- بذلك. غاية مايمكن أن نقرره: هو أن عروة لم يكن عاشقاً، ولم يصل بحبه إلى درجة العشاق الذين ضرب بهم المثل فى ذلك.

ولايفهم من ذلك أنه لم يك صادقاً فى حبه أو كان عابثاً ماجنا أو من هؤلاء الذين يتبعهم الغاوون، والذين تراهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالايفعلون

---

(١) شعر عروة د . الجبورى ص/١٣٩ .

وإنما عروة (كبقية الفقهاء) من هذا النوع الذين استثناهم الله بقوله : "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا" [(١)] .

لقد جمع شعر عروة ميزتين : كان : "مهيأ للغناء يغنى فيه صاحبه، ويغنى فيه غيره، وليس هذا كل مايميزه، بل هناك ميزة تتصل بمعانيه، فمعانيه تنصب على غزل عفيف فيه طهر، وفيه مثالية، وتعليل ذلك واضح فهو فقيه، وله من تدينه رادع يقيه أن يكون آثما فى حبه أو صريحاً صراحة تؤدى بغزله أن يكون مكشوفاً [(٢)] .

واللافت للنظر أيضاً : هو الاضطراب فى نسبة بعض أشعاره إليه ولقد وجدت شعراً لعبيد الله بن عتبة منسوباً لعروة[(٣)] وقد أشار د . الجبورى إلى أن خلطاً كان يقع بين بعض شعراء الغزل الذين عرفوا بالرقة والعفة والعذرية، كشعر جميل، وعروة بن حزام، والمجنون، وابن أذينة والعرجى : وغيرهم . ثم يعلل لذلك بقوله :

"وماالاضطراب هذه النسبة إلا لأن شعر الغزل بما فيه من رقة وعذوبة وعواطف جياشه، يشبه بعضه بعضاً، وقد اشتهر وذاع بين الناس، وعرفت معانى هؤلاء الغزلين فتداخلت الأشعار واضطربت نسبتها، إلا على أهل البصر بالشعر والأخبار، وكان شعر الغزل فى عصر عروة - لما فيه من سلامة وموسيقى وظرف وجمال مادة لألحان المغنين. [(٤)] .

---

(١) الشعراء آية / ٢٢٧ .

(٢) الشعر والغناء ص / ١٠٠ .

(٣) شعر عروة بن أذينة ص / ٤٠ .

(٤) شعر عروة بن أذينة ص٣٨ .

-٣-

عبد الرحمن بن عمّار الجُشَمى : لقب بالقسّ لعبادته. وكان من قراء مكة وهو فى المدينة يشبه عطاء بن أبى رباح مفتى مكه وعالمها فى عهد يزيد بن عبد الملك وكان عبد الرحمن يلازم مجلس عطاء وكان قد استمع إليه وقد أفاض وأجاد فى تأويل قوله تعالى : "وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت: هيت لك .. الآية "فزاد ذلك فى زهده وعفته، ولهذا يقول : شعارى فى نزعة من نزعات النفس هذه الكلمة العظيمة (رأى برهان ربه) .. فإن هذه الكلمة ليست كلمة وإنما هى كأمر من السماء تحمله، تمر به آمنا على كل معاصى الأرض ، فما يعترضك شىء منها، كأن معك خاتم الملك تجوز به .

وقد أوقعه حظه فى "سلاّمة الزرقاء" فبادلته حباً بحب فشغف بها وقال فيها أشعاراً غنّته بها، وكانت سلامة (جارية سهيل بن عبد الرحمن) مغنية حاذقة، جميلة فاتنة، شاعرة قارئه، مؤرخة متحدثة، لم يجتمع فى امرأة مثلها حسن وجهها وحسن غنائها وحسن شعرها . ثم اشتراها يزيد بن عبد الملك بعشرين ألف دينار "عشرة آلاف جنيه" وهو يقول : "مايقر عينى ماأوتيت من الخلافة حتى اشترى سلامة" ! فلما أمرها بالغناء : قالت سلامة : كنت كالمخبولة من حب عبد الرحمن .. وأنسيت الخليفة وأنا بين يديه، ولم أر إلا عبد الرحمن ومجلسه منى يوم سألنى أن أغنيه بشعره فىّ.. فتناولت العود ، وحسسته بقلبى قبل يدى ، وضربت عليه كأنى أضرب لعبد الرحمن ثم اندفعت أغنى بشعر حبيبى :

إن التى طرقتـك بين ركائـب ... تمشى بمزهرها وأنتِ حـرام[١]

لتصيد قلبك أو جـزاء مـودة ... إنّ الرفيق لـه عليـك زمـام

باتـت تعللنا وتحسـب أننـا ... فى ذاك أيقاظ ونحـن نيـام

حتى إذا سطع الصباح لناظر ... فإذا الـذى مابيننـا أحـلام

(١) طرقتك : أتتك ليلاً والركائب واحدة الركاب وهى الإبل وواحدتها راحلة .

وغنيته والله غناء والهه ذاهبة العقل كاسفة البال، ورددّته كما رددّته لعبد الرحمن وأنا إذ ذاك بين يديه كالوردة أول ماتتفتح ..

ثم سألنى "يزيد" أن أغنى ثانية فلم أشعر إلا وأنا أغنيه بشعر عبد الرحمن :

ألا قل لهذا القلب : هل أنت مبصر ... وهل أنت عن سلامة اليوم مُقْصِرُ ؟

إذا أخذتْ فى الصوت كاد جليسها ... يطيــر إليهــا قلبـه حين تنظـر

وأدّيته على ماكان يستحسنه عبد الرحمن ويطرب له، إذ يسمع فيه همساً من بكائى ولهفة مما أجد به، وحسرة على أنه ينسكب فى قلبى وهو يصدُّ عنى ويتحامانى وماغنيت : "وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر" إلا فى صوتٍ تنوح به سلامة وتندب وتتفجع !

فقال لى يزيد وَقد فضحت نفسى عنده : ياحبيبتى : من قائل هذا الشعر ؟

قلت : أحدثك بالقصة ياأمير المؤمنين ؟

قال : حديثينى . قلت : هو عبد الرحمن بن أبى عمار الذى يلقبونه بالقس لعبادته ونسكه .. وكان صديقاً لمولاى سهيل . فمر بدارنا يوماً وأنا أغنى فوقف يسمع ودخل علينا الأحوص - الشاعر - فقال ويحكم ؛ لكأن الملائكة والله تتلو مزاميرها بحلق سلامة ، فهذا عبد الرحمن القس قد شغل بما يسمع منها وهو واقف خارج الدار ، فتسارع مولاى فخرج إليه ودعاه إلى أن يدخل ، فأبى .. فقال له : أنا أقعدك فى مكان تسمع من سلامة ولاتراها .

قالت سلامة : والله ياأمير المؤمنين : ماكان صاحبى فى الرجال خلاً ولاخمرا .. وماأحسب الشيطان يعرف هذا الرجل وهل كان للشيطان عمل مع رجل يقول أنا أعرف دائماً فكرتى وهى "برهان ربه" ولقد تصنعت له مرة ياأمير المؤمنين، وتشكلت وتحليت وتبرّجتُ .. وغنيته ياأمير المؤمنين غناء جوارحى كلها وكنت له كأنى حرير ناعم يترجرج وينشر أمامه ويطوى .. وجلست كالنائمة فى فراشها وقد خلا المجلس ...!

قال يزيد : ويحك ويحك ! وبعد هذا ؟

قلت : وقد أردت أن أظهر امرأة فلم أفلح، وعملت أن أظهر شيطانة فانخذلت، وجهدت أن يرى طبيعتى فلم يرنى إلا بغير طبيعة .. وكانت بعض نظراته والله كأنها عصا المؤدّب، وكأنه يرى فى جمالى حقيقة من العبادة، ويرى فى جسمى خرافة الصنم، فهو مقبل علىّ جميلةً ولكنه منصرفٌ عنى امرأة .

لم أيأس على كل ذلك ياأمير المؤمنين، فإن أولّ الحب يطلب آخره أبداً إلى أن يموت . وكان يكثر من زيارتى .. فواعدته يوماً أن يجىء متى وارى الليل أهله لأغنيه : "ألا قل لهذا القلب ..." الأبيات .

وكنت لحنته ولم يسمعه بعد، ولبثت نهارى كله استروح فى الهواء رائحة هذا الرجل مما أتلهّف عليه .. وبلغت ماأقدر عليه فى زينة نفسى وإصلاح شأنى ..

قال يزيد وهو كالمحموم : ثم ثم ثم ؟

قلت ياأمير المؤمنين، ثم جاء مع الليل وإن المجلس لخالٍ مافيه غيرى وغيره بما أكابد منه ومايعانى منى، فغنيته أحرَّ غناء وأشجاه، وكان العاشق فيه يطرب لصوتى، ثم يطرب الزاهد فيه من أنه استطاع أن يطرب، كما يطيش الطفل ساعة ينطلق من حبس المؤدب .. فلما ظننتنى ملأت عينيه وأذنيه ونفسه وانصببت إليه من كل جوا رحه .. ملت إليه وقلت : "أنا والله أحبك" !

فقال : "وأنا والله" .

قلت : واشتهى أنا أعانقك وأقبلك" !

قال : "وأنا والله!"

قلت : "فما يمنعك ؟ فو الله إن الموضع لخالٍ!"

قال : "يمنعنى قول الله عز وجل : (الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدوّ إلا المتقين) فأكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة" (الزخرف آية ٦٧) .

إنى أرى (برهان ربى) ياحبيبتى، وهو يمنعنى أن أكون من سيئاتك وأن تكونى من سيئاتى .. ثم قام وهو يبكى، فما عاد بعد ذلك ياأمير المؤمنين ماعاد بعد ذلك وترك لى ندامتى وكلام دموعه ؟ وليتنى لم أفعل .. فقد رأى أن المرأة - فى بعض حالاتها - تشكف وجهها للرجل ، وكأنها لم تلق حجابها بل ألقت ثيابها .![1]

هكذا كشفت سلاّمة حبها حتى لُقّبت "سلاّمة القس" وتبقى القصة حيّة غنيّة بدلالاتها السامية . يقول د . الجوارى :[2]

ولهذا الخبر عندى دلالتان : الأولى : هذا السلطان القاهر لعاطفة الحب يغالبه الناسك ثم لايلبث أن يستسلم طوعاً أو كرها ويعترف بقوته وهيمنته عليه اعتراف من لاحيلة له فى دفعه .. والدلالة الأخرى : أثر الدين فى نشأة هذا النوع من الحب وأثره البعيد فى إعلاء الغرائز وسمو العواطف بما يوحى فى نفس المتمسك به من الشعور بالخطيئة، وذلك يتجلى على أحسن وجه وأتم صورة فى قول عبد الرحمن لسلامة بعد استشهاده بالآية الكريمة "وأنا أكره أن تكون خلة مابيننا وبينك تؤول إلى عداوة" هو إذن يعرض عن طاعتها فيما دعته إليه خوفاً من الله وابقاء على حبها،وحرصاً عليهـا.

على أن عبد الرحمن نفسه يردّ على من توهم أن الحب لايليق بالفقهاء أو أن الكلام فى الحب لون من العبث متغافلين عن طبائع النفس البشرية .. فيقول .

قالـوا أحب القَـسُّ سلامـــة	وهـو التقى الورع الطاهر
كأنما لايـدرى طعــم الهـوى	والحب إلا الرجل الفاجر !
ياقوم إننــــى بشـر مثلكم	وفاطرى ربكـــمُ الفاطـر

---

(١) راجع وحى القلم للرافعى جـ١ / ١٠٣ ومابعده ، والأغانى جـ٨ / ٣٣٩ ، وأخبار النساء لابن الجوزية / ٣٩ .

(٢) الحب العذرى ص/٨٨ .

لـى كبـد تهفـو كأكبادكـم ولـى فـؤاد مثلكم شاعـر !

والحق أن لعبد الرحمن شعر ينم عن نفس دمثة رقيقة الحاشية، وشعور مرهف شديد الحساسية، من ذلك قوله :

على سلامـة القلـب السـلام تحيـة مـن زيارتـه لمـامُ

أحب لقاءها وألـوم نفسى كأن لقاءهـا شـىء حـرام

إذا ماحن مزهرهـا إليهـا وحنت نحـوه أذنٌ كـرام

فمدوا نحوها الأعناق حتـى كأنهمُ ومانامـوا نيـام

وقوله :

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها فاعجب لما تأتى بـه الأيام !

فاليوم أعذرهـم وأعلم أنما سبل الضلالة والهدى أقسـام

وبعد : فأشعاره تشير إلى قصة حب عارمة بيد أنها قصيرة النفس، تصور صراعاً بين الخير والشر ينتصر فيها الخير بوازع الدين، حيث أيقظ العابد فى الفتاة اللاهية بذرة الطهر فى عالمها الفطرى، كما أيقظت هى فى أعماقه ميله الجنسىّ وتقدّم كل منهما خطوة نحو صاحبه، ولكن سرعان ماأحسّ العابد بمغبة الاستمرار ! تلك مغامرة نفسية لايقوى عليها كل إنسان وتلك روح سامية لم تكن لتظهر إلا بهدى من الله ونور الإسلام .

❊ ❊ ❊ ❊

- ٤ -

الإمام محمد بن إدريس الشافعى -رضى الله عنه- صاحب المذهب الفقهىّ المعروف وقد جاءت أشعاره فى هذا الصدد بمثابة طرائف شعرية ، من ذلك ماورواه الربيع بن سليمان قال : "كنت عند الشافعى إذ جاءه رجل برقعة فقرأها ، ووقع فيها ، فمضى الرجل، فتتبعته إلى باب المسجد فقلت: والله لاتفوتنى فتيا الشافعى، فأخذت .

الرقعة من يده فإذا فيها :

سل المفتى المكىّ هل فى تـزاورٍ | وضمةِ مشتاق الفؤادِ جُنـاح ؟

فوجدت قد وقّع الشافعى :

فقلت معاذ الله أن يُذهب التقـى | تلاصق أكباد بهنّ جـراح

قال الربيع : فأنكرت على الشافعى أن يفتى لحدثٍ بمثل هذا .

فقلت : ياأبا عبد الله تفتى بمثل هذا لمثل هذا الشاب ؟

فقال لى : ياأبا محمد هذا رجل هاشمى قد عرّس فى هذا الشهر يعنى شهر رمضان، وهو حدث السن فسأل هل عليه جناح أن يقبل أو يضم من غير وطء فأفتيته بهذا. قال الربيع فتتبعت الشاب فسألته عن حاله فذكر لى أنه مثل ماقال الشافعى ، قال : فما رأيت فراسة أحسن منها" (١)

ولعل المراد : أن التلاصق إنما يكون غير مذهب للتقى إذا كان فى عشق مباح. بل مستحب كعشق الزوجه والأمة .

وروى ياقوت الحموى قال : بلغنى أن رجلاً جاء "الشافعى" برقعة فيها (٢)

---

(١) الإمام الشافعى - الفقيه الأديب - أحمد بن محمد العربى ص / ٨٠ ط وزارة المعارف السعودية - المكتبات المدرسية . وروضة المحبين ص / ١٢٥ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموى ج١٧ / ٣٠٦ - ٣٠٧ وديوان الإمام الشافعى شرح الأستاذ نعيم زرزور ص٧٤ ط بيروت .

سل المفتى المكىّ من آل هاشـــم إذا اشتد وجدٌ بامرىء كيف يصنع؟

قال : فكتب الشافعى تحته :

يداو هواه ثم يكتـــم وجـــده ويصبر فى كل الأمـــور ويخضع

فأخذها صاحبها وذهب بها، ثم جاء وقد كتب تحت هذا البيت الذى هو الجواب:

فكيف يداوى والهوى قاتل الفتى وفى كل يـوم غصـة يتجـرّع[1]

فكتب الشافعى - رحمه الله تعالى :

فإن هو لم يصبر على ماأصابـــه فليس له شىء سوى الموت أنفع!

ولايخفى مافى الجواب من ظرف وحسن تناول

ويقول الإمام الشافعى فى حب النساء[2]

أكثر الناس فى النساء وقالـــوا إن حبَّ النساء جهد البـلاء[3]

ليس حب النساء جهداً ولكـــن قُرب من لاتحب جهد البـــلاء!

والبيت الثانى حكمة بارعة لاتخفى على ذى لب

وعن سوء الإنصاف فى الحب حدّث الرازى بإسناد عن إبراهيم ابن محمد الشافعى قال : سمعت ابن عمى "محمد بن إدريس الشافعى" يقول :

كانت لى امرأة وكنت أحبها، فكنت إذا رأيتها قلت لها، وفى رواية أخرى "أمازحها" فأقول لها :[4] .

ومن البليـــة أن تحـــبّ فلا يحبـــك من تحبـــه

---

(١) الغصة : الشجا ، وماغص الإنسان من طعام أو غيظ، ومااعترض فى الحلق فأشرق، والهم والحزن .

(٢) الديوان ص / ٢٣ .

(٣) جُهدهم : بالفتح والضم المشقة وقرىء بهما : "والذين لايجدون إلا جهُدهم" (التوبة / ٧٩).

(٤) الديوان ص٣٢ شرح زرزور .

فتقول هى :

ويصد عنــــك بوجهــه وتـلحُّ أنــت فــلا تَغبّـه[١]

ولايفوت هذا الفقيه الجليل أن يحث المحبين على العفة وأن يحذر من عاقبة الفاحشة فينظم هذا القول السائر :[٢]

عفوا تعـفُ نساؤكم فى المحرم وتجنبــوا مــالايليق بمسلم

إن الزنــا ديــنٌ فــإن أقرضتــه كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

وأنشد الحاكم فى مناقب الشافعى له : [٣]

يقولــون لاتنظــر وتـلك بليّةٌ ألا كلُّ ذى عينين لابدّ ناظـرُ

وليس اكتحالُ العين بالعين ريبةً إذا عفَّ فيما بين ذاك الضمائر

فإن صحت عن الشافعى فإنما أراد النظر الذى لايدخل تحت التكليف، كنظرة الفجأة أو النظر المباح .

وقد استدلّ فريق من العلماء بهذه الأبيات وبما شاكلها عند بعض العلماء على إباحة النظر، وقبلة العاشق (الواله) بناءً على القاعدة الفقهية التى تبيح (الدخول فى أدنى المفسدتين (دفعاً لأعلاهما) محتجين بقوله تعالى : "إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم"[٤] وقوله تعالى : "الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم"[٥] وقد أجاب ابن قيم الجوزية على هذه الشبه بما يساير روح الإسلام وهو

---

(١) يصد : يعرض ويشيح ، وأغب الزائر : جعل زيارته كل أسبوع .

(٢) الديوان ص / ٩٧ .

(٣) روضة المحبين ص ٨٨ .

(٤) سورة النساء آية / ٣٠ .

(٥) سورة النجم آية /٣٢ .

ماترتاح إليه النفس خشيه أن يتعلق بها المجان[١] وقد سبق القول بأن مثل هذه الأبيات من الإمام الشافعى قد كانت بمثابة نفحة من نفحات الأدب وأريحيته وطرائفه، وبرغم هذا نرى فيها ثقافة الإمام وتأثره بالإسلام، والشافعى قليل النظم عامة، لاعن ضعف بل لزهده فى النظم ذاته ولولا هذا لكان اشعر من لبيد كما أخبر هو عن نفسه :

ولولا الشعــــر بالعلمـاء يـزرى ... لكنت اليوم أشعـر مـــن لبيــد!

- ٥ -

الإمام محمد بن داود بن خلف أبو بكر الأصبهانى ، الفقيه الظاهرى، كان أديباً شاعرا عرف بواسع فطنته ونافذ بصيرته وسرعة بديهته حفظ القرآن وله سبع سنوات وخلف أباه فى رياسة المذهب الظاهرى، وتصدر للفتوى فى سن مبكرة، وقد استصغره قوم، فدسوا إليه رجلا يسأله عن حد السكر ماهو ؟ ومتى يكون الإنسان سكران ؟ فقال : إذا عزبت عنه الهموم وباح بسره المكتوم" فاستحسن ذلك منه، وعلم موضعه من العلم.[٢]

وجاء آخر إلى مجلسه فدفع إليه ورقة فأخذها، وتأملها طويلا، وظن تلامذته أنها مسألة فقهية، وقلبها وكتب فى ظهرها الإجابة فراجعوها فإذا السائل ابن الرومى الشاعر المشهور ، وإذا بالرقعة :

يابـــن داود يافقيــه العـــراق ... أفتنا فى قواتل الأحـــداق

هل عليهن فى الجروح قصاص ... أم مباح لها دم العشـــاق ؟

وإذا الجواب :

كيف يفتيكم قتيل صريــع ... بسهام الفراق والاشتيـــاق

(١) روضة المحبين ص١١٢ ومابعدها .

(٢) المحمدون من الشعراء . على يوسف القفطى ٣١٣ بتصرف .

وقتيل التلاق أحسن حـــالا   عند داود من قتيل الفراق!

لقب "بعصفور الشوك" لنحافة جسمه ورقة طبعه وشدة حيائه وخجله، من ذلك ماروى أنه اعتاد دخول الجامع من باب الوراقين، فهجره أياماً فسئل فى ذلك فقال : "دخلت يوماً فرأيت (متحابين يتحادثان) فتفرّقا مذ رأيانى، فآليت ألا أدخل مكانا فرّقت فيه بين محبين "وقد ابتلى بالحب منذ صباه، يقول : "ماانفككت من هوى منذ دخلت الكتاب" (١) .

وقد أشار معظم الباحثين فى الحبّ عند ابن داود إلى حبّه لمحمد بن جامع الصيدلانى، ومن أجله ألفّ ابن داود كتابه "الزهرة" وهو رأى لايميل القلب إليه ولاأراه مسايراً لأخلاق هذا العالم الجليل، وسأعرض لهذا فى الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

أما عن "شعره" فالعجيب أنه كان ينسب أشعاره إلى أهل عصره كما لاحظ ذلك المسعودى وغيره. يقول الدكتور السامرائى: (٢) "لقد أحصينا الأبيات التى نسبها إلى بعض أهل هذا العصر فى كتاب "الزهرة" فوجدناها أكثر من أربعمائة وأربعين بيتا وهى تؤلف عشر الكتاب تقريباً وإذا قدّرنا أن شعره الذى نهج فيه هذا المنهج يشكل هذه الكمية فنستطيع أن نقدر كمية الشعر التى نظمها هذا الشاعر المغمورالذى لم يترجم له أو لم تشر إليه كتب الأدب بإشارة واحدة .

إن دراسة دقيقة لشعره المتناثر فى النصف الأول من الزهرة توضح قيمة هذا الشعر من الناحية الفنية وتبرز اتجاهه العفيف فى معالجة هذا الجانب الشعرى المتميز.

ولعل الشاعـر لم يكن راضياً عن ميلـه هذا، أو لعله كان يريد أن يحصر شعره ويحول دون انتشـاره، وهذه ظاهرة توضّح لنا مدى جهل الناس بشعره فقد نقـل

---

(١) الزهرة لابن داود تحقيق د. السامرائى ص / ٧ . ط الأردن وقد أحلت دراستى على هذه النسخة .

(٢) الزهرة ص١٢ ومابعدها .

البغدادى[١] خبراً عن القاضى محمد بن يوسف قال : كنت أساير أبا بكر محمد بن داود بن على ببغداد فإذا جارية تغنى بشىء من شعره :

أشكو عليل فؤادى أنت متلفـه   شكوى عليل إلى إلف يُعلّلـه
سقمى تزيد مع الأيام كثرتـه   وأنت فى عظم ماألقى تقللـه
الله حرم قتلى فى الهوى سفـها   وأنت ياقاتلى ظلـا تحللـه

فقال ابن داود : كيف السبيل إلى استرجاع هذا ؟ فقال صاحبه مؤيسه من رده هيهات سارت به الركبان . !

على أن هذا الحب الوفى وهذا الود الخالص لم يسلما من أن يلابسهما مايلابس أى حب من وصل وهجر وإقبال وصد ووفاء وغدر، وقد أودع كل هذا شعره، فقد حدث أن وجد عليه حبيبه فهجره وماعاد ينعطف إليه، وكلما حاول أن يلتفت إليه ابتعد هو عنه وتمادى فى هجره، على غير عادته . فقال شاعرنا معبراً عن شوقه متأسفاً على هجره :

مالى ألفت وجهاً غير ملتفـت   نحوى وأعطف قلباً غير منعطف
يغرى بهجرى كما أغرى بألفتـه   هذا لعمرى وداد جد مختلـف
حجبت عينى عن الدنيا ونضرتها   شوقاً وأبرزتها للحزن والأسـف
ألا تكن تلفتْ نفسى عليك فقد   أصبحت والله مشتاقاً إلى التلف

وهو يخشى من الفراق قبل وقوعه فيبكى بدمع غزير قائلاً :[٢]

على كبدى من خيفة البين لوعة   يكاد لها قلبـى أسـىً يتقطـع
يخاف وقوع البين والشمل جامع   فيبكى بعين دمعهـا متسـرع
فلو كان مسروراً بما هـو واقـع   كما هو محـزون بما يتوقـع
لكـان سـواءً بـرءُهُ وسقامـه   ولكن وشك البين أدهى وأوجـع

---

(١) تاريخ بغداد جـ٥/٢٥٨ .   (٢) الزهرة / ٢٣٠ .

وهو يرى أن المحب الصادق هو المقيم على عهده عند الفراق أو الصد ثم يصف وفاءه لحبيبه وثباته على عهده فيقول :[١]

ياغارس الحب بين القلب والكبد	فرقت بالهجر بين الصبر والجلد
إذا دعا اليأس قلبى عنك قال له	حسن الرجاء فلم يصدر ولم يرد
يامن تقوم مقام الموت فرقته	ومن يحل محل الروح من جسدى
قد جاوز الشوق بى أقصى مراتبه	فإن طلبت مزيداً منه لم أجر
والله لاألفت نفسى سواك ولو	فرقت بالهجر بين الروح والجسد

ويتحدث عن وداع المحبين فيدعو إلى عدم شكوى المحب من الفراق لحظة الوداع تلك التى طالما عصرت قلوب المحبين ويقول إنها ليست آخر لحظة يلقى فيها الحبيب، فستأتى بعدها لحظات لقاء وليس هناك أمر من فراق بلا وداع ولاسلام أو تحية من بعيد أو كلام إنه عذاب لايطاق وجحيم وأى جحيم على أن شاعرنا ذاق كئوساً أمر من الموت فتحملها صابرا، ويثوب الفقيه إلى رشده فيذكر أن الدوام من المحال وأن الله قد كتب على كل شىء الفناء والزوال . فيقول :[٢]

تمتع من حبيبك بالوداع	إلى وقت السرور بالاجتماع
فكم جربت من وصل وهجر	ومن حال ارتفاع واتضاع
وكم كأس أمر من المنايا	شربت فلم يضق عنها ذراعى
ولم أر فى الذى لاقيت شيئاً	أمر من الفراق بلا وداع
تعالى الله كل مواصلات	وإن طالت تؤول إلى انقطاع

وهو يحث عن كتمان الحب، والصبر على العفة، فيرشد المحبين بقوله:[٣] .

---

(١) الزهرة ص / ٤٦٤ .

(٢) الزهرة لابن داود ص ٢٥٩ .

(٣) المحمدون من الشعراء ص٣١٥ وتاريخ بغداد جـ٥/ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

وإنى لأدرى أن فى الصبر راحة ... ولكن إنفاقى على الصبر من عمرى
فلا تطف نار الشوق بالشوق طالبا ... سلواً فإن الجمر يسعر بالجمر

وقوله : (١)

جعلت فداك إن صلحت فداء ... لنفسك - نفس مثلى أو وقاء
وكيف يجوز أن تفديك نفسى ... وليس محلّ نفسينا سواء

وابن داود الفقيه : تشيع فى أشعاره كلمات دينية، كالحلال والحرام ، والتوبة.. وهو كثيراً مايشير إلى حبه العفيف الذى لاتشوبه شائبه، وأى علاقة أسمى من تلك التى يصورها بقوله : (٢)

لاتلزمنى فى رعى الهوى سرفا ... وماأوفيه إلا دون مايجب
لو كنت شاهدنا والدار جامعة ... والشمل ملتئم والود مقترب
لابل مساواة ودى ودّه بهوىً ... كأنه نسب بل دونه النسب
مستأنسين بما تخفى ضمائرنا ... على العفاف ورعى الود يصطحب
فإن محا الشوق فرط الأنس أوحشنا ... أنس العواذل إن جدوا وإن لعبوا
فما تدافع بالهجران فهو على ... أن لايزول هوانا مشفق حدب
عانيت منزلة فى الظرف عالية ... ورتبة قصرت عن شأوها الرتب
فى عفة نتحامى أن يلم بها ... سوء الظنون وأن تغتالها الريب

ولعمرى إن هذا من نفيس الكلام، قد جمع لفظاً فصيحاً ومعنى صحيحاً غير أنه لم يخبر بالعلة التى من أجلها لم ينل حراماً ولاحلالا فيقضى له علي حسب ذلك لأن من منعه من إتيان المنكر عجزه عنه لم يشكر، وإنما يستطرف ممن قدر على مايهواه فتعففـ" (٣) .

---

(١) المحمدون من الشعراء ص٣١٥ وتاريخ بغداد جـ٥/ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .
(٢) الزهرة ص / ١٢٣ .
(٣) الزهرة د . السامرائى ص١٣٤ .

-٦-

الإمام أبو محمد على بن حزم الأندلسى[١] هذا الفقيه الذى بلغت تآليفه أربعمائة مجلد فى الفقه والتفسير والملل والنحل والتاريخ والأدب والنسب والرد على المعارض - لم ير مانعاً أن يسجل تجاربه الذاتية فى دنيا الصبابة غير عابىء بافتراءات أعدائه وخصومه الذين ألبوا عليه الرؤساء فأحرقوا كتبه علانية فما وهن وما استكان بل نظم قوله السائر :

فإن تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذى تضمَّنه القرطاسُ بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلتْ ركائبى وينـزل إن أنزل ويدفـن فـى قبـرى

يقول فيه الحميدى صاحب جذوة المقتبس : "كان له فى الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل ومارأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير وقد جمعناه على حروف المعجم" ومما أنشد له من شعره :

لئن أصبحتُ مرتحـلاً بشخصـى فروحـى عندكـم أبـداً مقيـم
ولكـن للعيـان لطيـف معنـى لـه سـأل المعاينـة الكليـم

ولايخفى مافى هذين البيتين من دعم الشعور العاطفى بالمعنى الدينى المستمد من قصة موسى عليه السلام وقوله فى مناجاة الحق سبحانه وتعالى : "رب أرنى أنظر إليك" والتعليل لهذا الطلب الجرىء بما لايتنافى مع قوة الإيمان ولايخامره أدنى شك ولذلك كان لهذين البيتين عند العلماء والمتصوفة قيمة كبيرة .. ولاتقل قيمتهما عند الأدباء عن قيمتهما عند العلماء لأنهما من حيث السبك والصياغة لاغبار عليهما وأما المعنى فإنه فريد لامثيل له غاية الأمر أن أنظار العلماء والأدباء تلاقت عندهما لما تضمناه من تعبير بارع عن مقصد كل من الطرفين . ونظيرهما قول أبى تمام فى سينيته المشهورة فى مدح المعتصم :

---

(٣) يكنى أبو محمد ويلقب بابن حزم واشتهر بابن حزم الظاهرى تولى الوزارة وسنه ١٦ ست عشرة سنة واستمر حتى بلغ ستة وعشرين عاماً ثم ترك الوزارة والملك وتفرغ للعلم والبحث .

لاتنكروا ضربي له من دونه | مثلا شروداً فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره | مثلاً من المشكاة والنبراس

ومع توارد الفقيه والشاعر الكبيرين على الاستقاء من معين الدين فى أبياتهما هذه مما يؤكد أن ذلك لايتعارض وأصالة الشاعرية، والإنصاف يقتضينا أن نقول إن بيتى ابن حزم أرقى معنى وألطف مساقاً وهما فوق ذلك أكثر سيرورة من بيتى أبى تمام [١] .

يقول ابن حزم عن شعره فى كتابه الطوق : "وسأورد فى رسالتى هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها علىّ أنى سالك فيها مسلك حاكى الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر" [٢] ثم يعرض لعلامات الحب التى يدركها الفطن ويهتدى إليها الذكى وأولها إدمان النظر، فالمحب ينتقل بنظره بتنقل المحبوب ويميل حيث مال وفى ذلك يقول : [٣]

فليس لعينى عند غيرك موقف | كأنك مايحكون من حجر البهت [٤]
أصرفها حيث انصرفت وكيفما | تقلبت كالمنعوت فى النحو والنعت!

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه والتعمد للقعود بقربه، والتباطؤ عند القيام عنه وفى ذلك يقول : [٥]

فى مجيئى إليك أحثث [٦] كالبد | ر إذا كان قاطعاً للسماء
وإذا قمت عنك لم أمش إلا | مشى عان [٧] يقاد نحو الفناء [٨]
وقياس إن قمت كالأنجم العا | لية الثابتات فى الإبطاء

---

(١) راجع أدب الفقهاء ص ٥١ ، ٥٢ .
(٢) الطوق ص٣ .
(٣) الطوق / ١٤ .
(٤) حجر البهت : نوع من الأحجار الكريمة .
(٥) الطوق / ١٥ .
(٦) أحثث : أسرع .
(٧) العان : الأسير .
(٨) هذا البيت (الأول) فى الأصل ولعل الأولى ماأثبتناه .

والسهر من أعراض المحبين، وقد أكثر الشعراء فى وصفه وحكوا أنهم رعاة الكواكب وواصفوا طول الليل وفى ذلك يقول ابن حزم: [(١)]

أرعى النجوم كأننى كلفت أن ... أرعى جميع ثبوتها والخنس [(٢)]

فكأنها والليل نيران الجوى ... قد أضرمت فى فكرتى من حندس

لو عاش بطليموس أيقن أننى ... أقوى الورى فى رصد جرى الكنّس [(٣)]

والأبيات تكشف ثقافة الشاعر الأدبية والعلمية، إلا أنه فى البيت الثانى أتى بتشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد كما نرى له عدة تشبيهات فى هذا الصدد يقول :

شوقٌ معنّى ماينام مسهّد ... بخمر التجنى مايزال يعربد

ففى ساعة يبدى إليك عجائبا ... يمر ويستحلى ويدنى ويبعد

كأن النوى والعتب والهجر والرضى ... قران وأنداد ونحس وأسعد [(٤)]

كأن الحيا والمزن والروض عاطراً ... دموع وأجفان وخدٌ مورّد

تجد فى البيت الأخير تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء كما تجد فى البيت الذى قبله تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء كلها فى بيت واحد وهذا من غريب الشعر وغاية التكلف بل تجد ماهو أغرب حين تقرأ خمسة تشبيهات فى بيت واحد يقول ابن حزم فى محبوبته : [(٥)]

---

(١) الطوق / ١٨ .

(٢) الخنس : الكواكب السيارة دون الثابتة .

(٣) الكنس : النجوم التى استحدث فى مجاريها .

(٤) قران : يسمى أهل المعرفة التقاء كوكبين فى درجة واحدة (قرانا) .

(٥) الطوق / ٢٠ .

فتاةٌ عَدمتُ العيش إلا بقربهـا فهل فى ابتغاء العيش ويحك من حرج؟

كأنى وهى والكاس والخمر والدجى ثـرى وحياً والـدرُّ والتبـر والسنـج

فهذا أمر لامزيد فيه ولايحتمل العروض ولاأبنية الأسماء أكثر من ذلك .

وقد لاحظ لاحظه كثير من الدارسين فى معظم شعر ابن حزم من تكلف وثقل على النقيض من نثره كما سيتضح فى كتابه "طوق الحمامة" .

ويطالعنا ابن حزم بنظرية معاصرة تفرق بين الشهوة والحب حين قرر أنه لايحب من أول نظرة، ويعجب ممن يدعى هذا الحب ولايصدقه فيقول :(١)

محبة صدقٍ لم تكن بنت ساعـة ولاوريـتْ حيـن ارتيـاد زنادهـا

ولكن على مهل سـرتْ وتولدتْ بطـول امتـزاج فاستقـرَّ عمادهـا

فلم يدن منها غرسها وانتقاضها ولـم ينأ عنها مكثها وازديادها الـخ

"ولعمرى لقد حكم ابن حزم عن تجربته حين لم يعلق به هوى دون عِشرةٍ وملازمة وطول اتصال لأن ظروف نشأته فى قصور أبيه وفيها الكثيرات من الجوارى الإسبانيات وسواهن ممن يتبادلن الزيارة من علية الأسر قد مهّدت له سبيل الاختيار والاختبار .. وأبياته فى اتئاد المحبة وتولدها بطول امتزاج حتى استقر عمادها - أبيات جيدة رائعة وقلما تستجاد أبيات ابن حزم فى طوق الحمامة لأنه ينظم فى كل موضوع عن كل موقف له أو لغيره، وفى نظمه سرعة عاجلة لاتسلس له قيادة العذوبة والرقة فترى أبياته - غالباً - ذاتَ ثقلٍ وجفاف ؛(٢)

---

(١) الطوق / ٣٠ .

(٢) الأدب الأندلس بين التأثر والتأثير د . محمد رجب البيومى ص١٦٩ .

وتقدير الجمال يختلف من إنسان لآخر حيث يؤثر فى المرأة أشياء معينة فقد أحب ابن حزم امرأة شقراء الشعر، ومن يومها لايستحسن غيرها من سوداء الشعر، يقول : "وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ولاتواتينى نفسى على سواه ولاتحب غيره" ويردُّ على الذين عابوا عليه هيامه بالشقراوات بأن الشقرة لون النور والذهب والنرجس والنجوم على بعد .

أما السواد فلون أهل جهنم ولباس الثكالى فيقول فى تلك المليحة الشقراء :

يعيبونها عندى بشقـرة شعرهـا	فقلت لهم : هذا الذى زانها عندى
يعيبـون لون النور والتبر ضلـة	لـرأى جهـول فى الغواية ممتـدّ !
وهل عاب لون النرجس الغضّ عائب	ولـون النجوم الزاهرات على البعـد
وأبعد خلق اللـه من كل حكمـة	مفضّـل جرم فاحم اللون مســودّ
به وصفـت ألـوان أهــل جهنـم	ولبسة باكٍ مثكل الأهل محتــدّ!
ومذ لاحت الرايات(١) سوداً تيقنتْ	نفوسُ الورى ألا سبيل إلى الرشـد

فهذه الأبيات تنبىء عن ذوق مدنىّ مهذب، وماأملح قوله : "فقلت لهم : هذا الذى زانها عندى" وإذا علمنا أن حبه للشقرة كان طبيعة له وميلاً غريزياً فيه علمنا أنه يعبر عن شعور صادق وحب راسخ. والبيت الأخير إشارة إلى نزعة سياسية مروانية لم يغفِل ابن حزم الإفصاح عنها وقد وأتته المناسبة .!

وكذلك يضمن شعره الوجدانى الإشارة إلى مذهبه الظاهرى :

وذى عــذل فيمـــن سبانى حُسنـه	يطيل ملامى فى الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تـر غيـره	ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له : أسرفت فى اللوم فاتئدْ	فعنـــدىَ ردٌّ لو أشـــاء طويـل
ألـم تر أنـــى ظاهـرىّ وأننـى	علـى مابدا حتى يقوم دليـــل !

---

(١) هى رايات بنى العباس وكانت سوداء حين قيامهم لإسقاط دولة الأمويين (الطوق ص٣٥) .

وماأحسن هذا القول وألطف تضمينه مذهبه ولاسيما إذا علمنا أن للأبيات حكاية ذكرها ابن حزم فى "الطوق" وأن المحاورة فيها كانت مع الحافظ أبى عمر بن عبد البر وهو من أئمة مذهب مالك، فمن البراعة الاحتجاج فى هذا المقام الأدبى بالمذهب الفقهى الذى يأخذ به الشاعر، والمخالف كان من غزارة العلم وسعة الأفق بحيث يتقبل هذا الاحتجاج ويمره على أنه من اللطائف الأدبية .. وهكذا كان القوم على إمامتهم فى العلم والدين يتعاطون كؤوس الأدب ممزوجة بالتلميحات اللطيفة ولايرون فى ذلك حرجاً ولايستطيع أحد أن يلزمهم بسوء .

ويقرر ابن حزم أن الحب طبيعة من طبائع الإنسان لاتحتاج إلى فلسفة للاهتداء إليها "فاستحسان الحسن وتمكن الحب طبع لايؤمر به الإنسان ولايُنهى عنه، إذ القلوب بيد مقبها ولايلزمه غير المعرفة والنظر فى فرق مابين الخطأ والصواب .. وأما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة" ثم يقول محتجاً لرأيه:ص٤٤

يلوم رجالٌ فيك لم يعرفوا الهوى	وسيان عندى فيك لاح وساكت
يقولون جانبت التصاون[1] جملةً	وأنت عليهم بالشريعة قانت
فقلت لهم هذا الرياءُ بعينه	صراحاً وزىٌّ للمرائين ماقتُ
متى جاء تحريم الهوى عند محمدٍ	وهل منعه فى محكم الذكر ثابت؟
إذا لم أواقع[2] محرماً أتقى به	مجيىء يوم البعث والوجه باهت
فلست أبالى فى الهوى قول لائم	سواء لعمرى جاهرٌ أو مخافت

(١) التصاون : الوقاية من العيب .

(٢) فى الأصل : أوقع .

وهل يلزم الإنسانَ إلا[1] اختياره   وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت؟

هكذا يحتج بالشعر كاحتجاجه فى مسائل الفقه .. وهذا من ابن حزم دليل على قوة عارضته ورسوخ ملكته الفقهية والكلامية ومن قبيل احتجاجه لمذهبه وقد بلغ الغرام درجة جعلته يتمنى فيها أن يشق قلبه ويضع فيه الحبيب، ويطبق صدره عليه إلى يوم القيامة .. فيقول :[2]

وددت بأن القلب شق بمدية   وأدخلتِ فيه، ثم أطبق فى صدرى

فأصبحتِ فيه لاتحلين غيره   إلى منقضى يوم القيامة والحشر

تعيشين فيه ماحييتُ، فإن أمت   سكنتِ شغاف القلب فى ظُلم القبر

وبرغم حدة العاطفة وصدقها، فإن الصورة الشعرية رديئة لمن يرضى أن يحبس طول حياته فى قلب محبه، أى فى سجن أبدى وظلام .. !

والأبيات تفيض بالأنانية وليس فيها من سمو العاطفة شيء، بل على العكس قد انحدرت بالعاطفة إلى مرتبة حب الذات والأثرة المشبوبة بالغيرة .. وإذا قسنا هذه الظاهرة بمقاييس علم النفس الحديث وجدناها تشير إلى الظاهرة التى نعرفها اليوم باسم (النرجسية) حيث أن العاطفة السامية تميل إلى الإيثار لا إلى الأثرة، وهى مظهر الحب الصادق، لأن المحب لايلبث أن يشعر بأن فى الحب تحرراً من الذاتية والأثرة وتضحية بالأنانية، ومن خلال التسامى بالعاطفة، يكتسب الحب دلالته العميقة، باعتباره مظهراً للتحرر من (النرجسية) فلا يكتفى الشخص البالغ بمعاضدة محبوبه، والاعتماد عليه بل يحاول أيضاً أن يظلله بعطفه، ويحيطه بالعناية والتضحية[3] وهذه الظاهرة تكشف لنا عن جانب من جوانب السلوك عند ابن حزم فهو رجل

---

(١) فى الأصل : إلى . ولعل الصواب ماأثبتناه فى الكلمتين .

(٢) الطوق / ٧٤ .

(٣) الحب ومذاهبه النفسية والجمالية د . الصادق عفيفى ص١٤٤ ، ١٤٥ .

(عصابى) بمعنى الكلمة، وتاريخ حياته، وسيرته تشيان بذلك، فهو لم يدرك من الحب إلا الجانب الأنانى جانب الاستئثار .. وفى يقينى أن مرد ذلك إلى آثار تربيته الأولى فقد نشأ مدللا ، محوطاً بالرعاية .. وارضاء نوازعه وميوله، فانعكست هذه الطفولة المدللة على سلوكه فى شبابه وكهولته، حيث لم يتعلم أساليب التعامل الاجتماعى إلا بعد الخامسة عشرة من عمره، كما يقرر ذلك "كنت وقت تأجج نار الصبا، وشدة الحداثة، وتمكن غرارة الفتوة مقصوراً محظراً على" (١) .

لقد أحس ابن حزم بجمال المرأة (منذ نشأته) بيد أنه وصفها وصف "فقيه عاشق" يدرك مايبعثه الجمال الحسىّ من رغبة ويثيره من شهوة، ومع ذلك لاتفارقه النزعة الدينية، فنرى فى وصفه عبارات دينية لها مدلولاتها، كيوم الحساب، والنفخ فى الصور، والجنة وبنات الحور، من ذلك قوله : (٢)

فريدة(٣) صاغها الرحمن من نـور ... جلت ملاحتهـا عن كل تقديـر

لو جاءنى عملى فى حسن صورتها ... يوم الحساب ويوم النفخ فى الصور

لكنت أحظـى عباد اللـه كلهـم ... بالجنتيـن وقـرب الخرّد الحـور!

كما تفرض ثقافته الدينية نفسها فى قوله : ص / ١٣١ .

منعتْ جمـال وجهـك مقلتيـا ... ولفظـك قـد ضننتِ بـه عليّـا

أراك نـذرت للرحمـن صومـاً ... فلسـت تكلميـن اليـوم حيّاً!

---

(١) المرجع نفسه ص١٤٦ والطوق ص١٤٨ .

(٢) الطوق / ١٤٩ .

(٣) اللؤلؤة التى تثقب، والمرأة الحبيبة ، والبكر التى لم تمس .

وقد ابتلى "الفقيه العاشق" بفقد محبوبته (نعم) وكان أشد الناس كلفاً بها وكان هو أبا عذرها، فلما توفيت ظل سبعة أشهر لايتجرد عن ثيابه ولاتفتر له دمعة على جمود عينه فمما يقول فيها (ص/١٠٨)

مهذبةٌ بيضاء كالشمس إن بدت ... وسائر ربات الحجال نجوم
أطار هواها القلب عن مستقره ... فبعد وقوع ظل وهو يحوم

والحب العذرى الصادق : دليله التوحد فيه والوفاء له، نرى هذا فى قوله (ص٣١) .

كذب المدعى هوى اثنين حقا ... مثل مافى الأصول أكذب مانى
ليس فى القلب موضع لحبيبـ ... ـين ولاأحدث الأمور بثانى
فكما العقل واحد ليس يدرى ... خالقا غير واحد رحمن
فكذا القلب واحد ليس يهوى ... غير فرد مباعد أو مدان
وكذا الدين واحد مستقيم ... وكفور من عقيدة دينان

هكذا يربط ابن حزم (الحب بالستقرار النفسى) ويفرّق بينه وبين الشهوة. فالتعدد حليف الشوة والتوحد قرين المحبة وادعاء حب اثنين هو خلط بين الحب والشوة، وإنما يطلق على الشهوة حباً على سبيل المجاز .

❁ ❁ ❁ ❁

الباب الثالث

التأليف العاطفي عند الفقهاء

الفصل الأول

الريادة والتخصص

تمهيـــــد :

اهتمام الفقهاء بدراسة الحب هو نفسه اهتمام بالعلاقات الاجتماعية ومايترتب عليها من حلال مباح أو محظور محرم تبعاً لاختلاف تكوين الجنسين، والوظيفة الأسرية، لهذا لاعجب أن يكون الفقهاء أول من أقبل على هذا النوع من التأليف بقصد الكشف عن النوازع الإنسانية وطبيعة العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة وماينبغى أن تحاط به لتظل فى مستوى يحفظ للإنسانية كرامتها ورقيها الوجدانى .

وقد أشارت كتب الفقهاء إلى مراجع عديدة تحدثت عن الحب، ومايتعلق به، قسمتها قسمين : (متخصصة رائدة) ، (تابعة آخذة بمنهج شمولى موسوعى) وبدأت بالرائدة المتخصصة :

(١)

رائد البحث النظرى فى قضية : الحب الإنسانى :

الراية معقودة - دون منازع - للفقيه الظاهرى : **ابن داود الأصبهانى،** فهو أول من درس الحب العذرى وقعدّ له، وسبق إلى البحث عن رؤية عربية هى "جوهر النظرية العربية فى الحب" واستطاع فى كتابه **"الزهرة"** أن يعطى أول تصوّر لإطار يجمع بين البواعث والمظاهر أو بين العلامات والنتائج فى حالاتها المتعددة .

والكتاب مكون من مائة باب، فى كل باب مائة بيت من الشعر أى أنه يحتوى على "١٠,٠٠٠" عشرة آلاف بيت . وهو جزءان : الأول : فى الحب، والآخر : مختارات شعرية تتناول قضايا عامة بعيدة عما نحن بصدده . فما يهمنا - إذن - هو الجزء الأول ، وقد مهد له ابن داود بمقدمة مسجوعة وجعل عنوان كل باب مثلاً يضرب فى الحب أو حكمة سائرة فيه. وقد جعل الأبواب الخمسين تساير التطور المألوف لعاطفة الحب فى مسارها الطبيعىّ المتوقع. فحيث يكون النظر هو البداية يكون

العنوان : "من كثرت لحظاته دامت حسراته" وحيث يكون اضطراب الخاطر يكون الباب الثانى : "العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير" .. وهكذا جمع بين جمال الشكل أو أناقة المظهر والجوهر معاً .

سبب تأليف الكتاب :

هنا مسألة جديرة بالبحث حول مناسبة تأليف الكتاب وقد أضاف الرواة إلى ابن داود وإحساسه الراقى بشرف عاطفة الحب وطهارته مالايناسب وقاره حيث زعموا علاقة شاذة بينه وبين ابن جامع وقد ألف الكتاب من أجله . ويعرض د . محمد حسن عبد الله لهذه القضية(١) فينكر بشدة هذا العشق المزعوم مهما وصف بالعفه، ويبرىء المحاولة الرائدة فى مجال دراسة الحب أن تكون من منطلق شاذ وليس فى الكتاب كلّه على كثرة مافيه من الأشعار بيت واحد يروّج للحب الشاذ أو يعتذر له – ويدلل على رأيه بأسباب كثيرة نوجزها فيما يلى :

١ – التشكيك فى إسم معشوقه : أهو محمد بن جامع أو ابن زخرف أو وهب بن جامع وهذا الاضطراب له دلالته فى الاعتماد على الظن .

٢ – أول من أخبر عن هذا العشق المزعوم هو ابن السراج بقوله :

"كان محمد بن جامع ينفق على ابن داود وماأعرف معشوقاً ينفق على عاشق إلا هو"(٢) ثم يروى خبراً – عن نفطويه – فيه دلالة عكسية يقول راوى الخبر :

إن ابن داود كان يدخل الجامع من باب الوراقين، فلما كان بعد مدّة عدل وجعل دخوله من غيره وكنت مجترئاً عليه فسألته عن ذلك فقال : صادفت عند الباب حدثين يتحدثان وكل واحد منهما مسرور بصاحبه فلما رأيانى تفرقا فجعلت على نفسى ألا

---

(١) راجع الحب فى التراث ص ٦٦ – ٧١ .

(٢) مصارع العشاق جـ٢ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

أدخل من باب فرّقت فيه بين مؤتلفين"[١].

ويروى ابن الجوزى هذه الأخبار باختلاف فى الأسانيد ولايحدد شخص المحبوب، ويضيف أيضاً عن نفطويه قوله : دخلت على ابن داود فى مرضه الذى مات فيه، نقلت : كيف تجدك ؟ فقال : حب من تعلم أورثنى ماترى . فقلت : مامنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : أما النظر المباح فأورثنى ماترى وأما اللذة المحظورة فإنه منعنى منها ماحدثنى به أبى ... عن ابن عباس عن النبى (ص) أنه قال : "من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة" .[٢]

٣ - ويعرض د . محمد حسن لملامح شخصية ابن داود الفقيه وطبيعة تكوينه النفسى وقد لقب صغيراً بـ (عصفور الشوك) لخجله وحيائه الشديدين ثم يعلق بقوله:

هذه الدماثة المتناهية والرقة النادرة لايعقل أن يكون مما يرضاه خلة عشق مهما قيل فى عفته هو نقص فى المروءة وثلمة فى الحس الدينى .

ثم يفنّد مارواه نفطويه بقوله : وهل يتوافق أن يقال إن ابن جامع كان ينفق عليه وأنه كان أول عاشق ينفق عليه معشوقه مع قول راوى الخبر "وكنت مجترئاً عليه"! وهل يمكن أن يقال لمن هو على فراش الموت "مامنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه"؟ فأين مهابة رجل يخشى المجترىء عليه أن يكلمه، وأن يكون أقصى مايجترىء به أن يسأله عن اختلاف طريقه إلى المسجد والفجوة واسعة بين التحريض على متعة محرمة وحالة مريض يرى الموت بين عينيه !

والحق إن هذا الإنكار لسبب تأليفه الكتاب ولهذا العشق الشاذ رأى يطمئن القلب إليه ، ولايستغرب لزعيم دينى ورائد مذهب له خصوم قد دخل معهم فى منازعات . أن يلفّق له مثل هذا الاتهام !.

---

(١) ذم الهوى ص ١٢١ ، ١٢٢ ومصارع العشاق جـ١ / ٣٢٧ .

(٢) سبق توثيق هذا الحديث ص ٢٠ - ٢١ .

والجدير بالذكر أن هذا الاستنتاج مردُّه الوعى بشخصية الرجل والتعرف على قاعدة سلوكه ومنحى أخلاقه .

واقرأ دفاع ابن داود عن نفسه فى مواجهة اتهام بعض معاصريه له أن الكتابة فى العشق أمر لايليق بالفقهاء . يقول : "ونحن لو شئنا أن نذكر من كتاب الله عز وجل ومن أخبار المتقدمين من أنبيائه، وأيضاً نخبر من أوليائه مايسهل سبيل الهوى على من أنكرها ويقربها من فهم من لم ير أثرها من حيث لايستوجب به عاقل إنكار ولايلحق بأحد من الأئمة فيه عار لرجونا بإذن الله أن لانقصرّ عن ذلك ، غير أن هذا الأمر ليس من أمور الديانات التى لاتثبت إلا بالاحتجاجات، وإنما هو شىء يختص به قوم برقة طبائعهم وتآلف أرواحهم فمن كان مثلهم فهو يعذرهم، ومن خرج عن حدّهم هان قوله .. [١] وقد غضب عليه القاضى ابن سريج فعيرّه بكتاب "الزهرة" "فقال أبو بكر ويكتاب الزهرة تعيّرنى؟ والله ماتحسن تستتم قراءته قراءة من يفهم فإنه لمن أحد المناقب إذ كنت أقول فيه : [٢]

أكرر فى روض المحاسن مقلتى	وأمنع نفسى أن تنال محرّما
وأحمل فى ثقل الهوى مالو أنه	يصب على الصخر الأصم تهدّما
وينطق سرى عن مترجم خاطرى	ولولا اختلاسى ردّه لتكلما
رأيت الهوى دَعوى من الناس كلّهم	فما إن أرى حبا صحيحاً مسلّما

فقال ابن سريج : أو علىّ تفتخر بهذا ؟ وأنا الذى أقول :

ومساهر بالغنج من لحظاته	قد بت أمنعه لذيذ سناته
ضناً بحسن حديثه وعتابه	وأكرر اللحظات فى وجناته

(١) الزهرة / ٤١ .

(٢) المحمدون من الشعراء ص٣١٧ .

حتى إذا ماالصبح لاح عموده ولى بخاتم ربه وبراته

وابن داود حين يبحث فى الحب يصف (كيف يتولد) فيشير إلى دور النظر وأنه سبيل نافذ إلى القلب وبه تكون البداية غالباً : فيعقد باب "من كثرت لحظاته دامت حسراته" (ص / ٤٥) يفتتحه بتلك الحكمة : "رب حرب جنيت من لفظه ورب عشق غرس من لحظه" ؛ إلا أن (السماع) قد يقوم مقام (النظر) وقد يسبقه على حد قول بشار :

"والأذن تعشق قبل العين أحيانا" وتلك لفتة بارعة لاتغيب عن ابن داود. وقد روى لها قول ثعلب:[1]

وماالحب إلا سمع إذن ونظرة ووجبة قلب عن حديث وعن ذكر

ولو كان شيء غيره فنى الهوى وأبلاه من يهوى ولو كان من صخر

الأسباب البعيدة للحب :

ولما كان ليس بالضرورة أن يكون النظر أو السماع هو التعليل الوحيد . لنشأة الحب عاد ثانيةً بتعليل أكثر غوراً والتصاقاً بالنفس فقال : "نحن إن شاء ذاكرون مافى ذلك الأمر الذى أوقعه السماع والنظر، ولم وقع وكيف وقع إذ قد صح كونه عند العامة وخفى سببه على الخاصة " (الزهرة / ٥٣) ثم يشير إلى السبب الحقيقى وهو تعارف الأرواح فيروى بسنده عن عائشة عن النبى (ص) : أنه قال : "الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وماتناكر منها اختلف" أى أن الحب علاقة قديمة قدم الأرواح فى عالمها الأول وهذا الحديث الشريف تؤكده المشاهدة المستمرة وابن داود أول من استشهد بهذا الحديث وعلل به التآلف أو التنافر، وقد

---

(١) أبو العباس أحمد بن يحيى الملقب بثعلب النحوى المشهور عالم بالشعر والأدب ت ٢٩١ هـ (الزهرة / ٤٥) .

تمخض عن هذا مصطلح جديد هو "المشاكلة" فكان منطلقاً لكل من جاء بعده .
والجديد أيضاً فى كتاب ابن داود أنه يفلسف الحب فيرجعه إلى مبادىء نادت بها بعض الفلاسفة من مثل:

"أن الله جلّ ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة، ثم قطعها أيضاً، فجعل فى كل جسد نصفا وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة .. (الزهرة / ٥٣) وهو يورد ذلك الرأى دون أن يذكر اسم أفلاطون صراحة. (١) ويروى قول جميل فى ذلك : (٢)

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ماكنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنتقض العهد
ولكنه باقٍ على كل حالة وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

ثم يعود ثانية للفلسفة فيشير إلى التفسير الفلكى حيث تتحكم الأبراج فى اتفاق الأرواح، وتوافق البرج يعنى توافق المزاج وهو ماعرف فى عالم الحب بـ "المشاكلة" (الزهرة / ٥٥) .

ولاتقع "المشاكلة" بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق لأن العقل يجرى على ترتيب .. والحمق لايجرى على ترتيب ، فلايجوز أن يقع به اتفاق بين اثنين (الزهرة / ٥٦) وقد لعب هذا المصطلح "المشاكلة" دورا كبيراً فى سائر الدراسات التى جاءت بعد ابن داود .

---

(١) راجع مائدة أفلاطون تعريب محمد لطفى جمعه ص / ٢٣٨ - ٢٣٩ وتجد أثر هذه الأسطورة فى "محاضرات الأدباء للأصبهانى" ص / ٢٦٣ .

(٢) أشار د. السامرائى فى تحقيقه "الزهرة" ص٥٤ إلى أن هذه الأبيات فى ديوان جميل ص٤٢ وجاءت منسوبة إلى المجنون بديوانه ص١١٤ . ولعل الصواب أنها لقيس بن ذريح (عشاق العرب د. عبد المجيد زراقط ص ٧٧ والحب العذرى موسى سليمان ص١١٢) وقد روى البيتان الثانى والثالث هكذا :

.... وليس إذا متنا بمنفصم العقد
ولكنه باق على كل حادث ....

مراتب الحب وحالاته :

أول مايتولد عن النظر والسماع (الاستحسان) ثم يقوى فيصير (مودّة) ثم تقوى فتصير (محبة) ثم تقوى المحبة فتصير (خُلّة) وهى فى الآدميين ماتتخلل العظم واللحم والدم فتسقط السرائر وتبوح الضمائر، ويروى فى ذلك لعبيد الله بن عتبه[١] .

تغلغل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافى يسير

تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولاحزن ولم يبلغ سرور

ثم تقوى (الخلّة) فتوجب (الهوى) فإذا قوى الهوى صار عشقا ثم يزداد فيصير (تتييماً) ثم (ولهاً) وهو قمة مايبلغه المحب. إذ به يخرج عن حد التمييز (الزهرة / ٥٨ - ٦١) .

وقد أجاز بعض الفقهاء كابن تيمية وابن داود وغيرهما النظرة والقبلة للعاشق الذى بلغ هذه الدرجة الأخيرة من باب (الدخول فى أدنى المفسدتين دفعاً لأعلاهما) إحياءً لنفسه وعقله[٢] .

وفى كل حالة من الحالات المذكورة يستشعر المحبُ من نفسه نشاطاً ليس له به عهد وحياة ذات قيمة ولذة !

ويعود ابن داود إلى "النظر" أصل الهوى ليشير إلى حالة من حالات البلبلة واضطراب الخاطر فيقول : (ص/٧١) .

"فإذا كان النظر الصاحى إلى الصورة التى يستحسنها طرفه مؤكداً للمنظور إليه المحبة فى قلبه، كان نظر المحب بعد تمكن المحبة له أحرى أن يغلبه على لبه ويزيده

---

(١) ابن عتبة بن مسعود من أعلام الفقهاء، وقد سبق التعريف به .

(٢) روضة المحبين ص / ١١٢ ومابعده .

كربا على كربه ألا ترى أن من حمّ يومين متواليين كان ألمه فى الثانى .. إذا تساوى مقدار الحميين أصعب إليه" .

ثم يروى فى ذلك قول المجنون (ص / ٧٦) .

تداويت من ليلى بليلى من الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ألا زعمت ليلى بأن لاأحبها بلى والليالى العشر والشفع والوتر

ويقف ابن داود الفقيه عند (آداب الحب) طويلاً مستشهداً بالأشعار والأخبار معلقاً عليها بما يؤكد خلقاً كريماً .

إلا أنه فى استناده المفرط إلى الشعر قد يورد الشىء ونقيضه فى الحب مادام يجد فى الشعر مايسعفه، نرى ذلك فى **الكتمان** وفى **العتاب** كما سيأتى :

فهو تارة يشيد بالإفصاح عن الحب ويعقد له باب "ليس بلبيب من لم يصف مابه لطبيب" ويروى الأشعار كقول ثعلب (ص ٨٢) :

وإنى لأخشى أن أموت فجاءة وفى النفس حاجات إليك كما هيا

وإنى لينسينى لقاؤك كلما لقيتك يوماً أن أبثك مابيا

ثم يعقد باب "إذا صح الظفر وقعت الغيرّ" فيدعو المحب للكتمان ويعلل للحالين : "فالمحبوب يستعطف محبه ليشرف على حقيقة مافى قلبه وليتمكن أيضاً هواه من نفسه فإذا وقع له اليقين استغنى عن التعرف" (ص ٩١) .

وأخيراً يستحسن قول العباس بن الأحنف :[١]

من كان يزعم أن سيكتم حبه حتى يشكك فيه فهو كذوب

الحب أغلب للرجال بقهره من أن يُرى للسر فيه نصيب!

(١) لاتوجد الأبيات فى الديوان (الزهرة ص ٩٩) .

حقاً : الحب غلاب لايبقى سراً إلا هتكه ولاسراً إلا أعلنه. زفراته متصاعدة وعبراته متتابعة تشهد عليه جوارحه ..!

وفى الوقت ذاته يرى ابن داود أن كل متشوق بهبوب الريح أو سجع الحمام .. أو غير ذلك حبه ناقص عن التمام لقلة صبره، وأن الصبابة لم تملأ قلبه فتشغله. (فالحب فى **حال التمام عنده هو جوهر نظريته المثالية**) وهو يبنى على كتمان المحب حبه - حتى عن المحبوب - نتيجة يتصور فيها : إمكان الحب من طرف واحد وهذا يعنى أنه جرّد من الحب حالة نفسية تأملية ثابتة وليس حركة عاطفية قائمة على التبادل والإشباع المشترك، وهو مايمثل جوهر نظريته، بل لعله جوهر النظرية العربية عن الحب عامة .[1]

ويعرض للرقيب على أنه : من (آفات الحب) وبلية من بلواه فيعقد له باب "من وفى له الحبيب هان عليه الرقيب" ثم يقول : "وإنما يغلظ أمر الرقيب على من لم يمتحن بمفارقة الحبيب" (ص / ١٤٦) ثم يروى لبعضهم (ص ١٤٩) :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطـق ... كلامـا تكلمنـا بأعيننا سـرا[2]

فنقضـى ولم يعلـم بنا كل حاجـة ... ولم نظهر الشكوى ولم نهتك السترا

ولو قذفـت أحشاؤنـا ماتضمنـت ... من الوجد والبلوى إذن قذفت جمرا

ويعلق عليه ابن داود تعليق الخبير المجرب فيقول : (الزهرة / ١٤٩) "صاحب هذا الشعر البائس مغتر بالزمان، جاهل بصروف الأيام يتبرم بالرقيب مع مشاهدة الحبيب وهو لايعلم أن هذه الحال تتقاصر عنها الآمال، وتنقطع دونها الآجال . ولكن من لم ينكبه الفراق ولاالهجر ولم يعترض إلى الخيانة والغدر، حسب أن الرقيب هو منتهى كيد الدهر وظن أنه قد امتحن بما لايقوم له الصبر " .

---

(١) راجع الحب فى التراث العربى ص ٩٩ .

(٢) الكاشح : مضمر العداوة المتولى عنك ودّه كأنه يوليك كشحه ، والكشح : مابين الخاصرة إلى الضلع الخلف (مصارع العشاق جـ١ / ١٠٥) .

وربما فارق المحب حبيبه امتحاناً له، وهو كما يقول أهل العصر لعب بالنار تصدق فيه حكمة أبى بكر : "من تجلد على النوى فقد تعرض للبلى" وربما رحل عنه ليجد لذة اللقاء بعد الفراق وليبعث فى قلب حبيبه الشوق إليه "وكثيراً ما يجرى الأمر فى ذلك على ضد تقديره ويصدق على ذلك قول أبى بكر "من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه" وقوله على لسان بعض أهل العصر[١] .

ألا يالقومى للهوى المتزايد ... وطول اشتياق الراحل المتباعد

دخلت لكى أحظى إذا أبت قادما ... فأوردنى الترحال سوء الموارد

كأنى لديغ حار عن كنه دائه ... طبيب فداواه بسم الأساود

فمال مع الداء القديم دواؤه ... فيالك من داء طريف وتالد

ويرى أبو بكر بحق : "أن الحزم لأهل الهوى ألا يبسطوا على أرواحهم يد النوى فإن عذاب الهوى مع حضور المحبوب ينغص العيش ويبرح القلوب فكيف إذا تحكم فيه سلطان الفوارق وأمدت صاحبه الفكر بخواطر الاشتياق والتهبت فى الضمير لوعات الاشتياق حينئذ تسكب العبرات وتتمكن الحسرات" وهذا كلام خبير ذاق اللوعة وجرب الغصة .

والفراق بعد هذا يقوى الحب ويزيد فى توكيده ذلك أن المحب إذا فارق حبيبه تذكر قربه وتخيل أنسه به والتذاذه بوصاله فضاعف فى قيمته وبالغ فى فقره إليه ذلك فى تعلقه به وحرصه عليه : (الزهرة / ٢٥٨) .

وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وأن النأى يشفى من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف مابنا ... على ذاك قرب الدار خير من البعد

وقال آخر (الزهرة ٢٥٨) .

---

(١) الزهرة / ٢٥١ والحب العذرى ص / ١٣٥ ومابعدها .

وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وأن النأى يشفى من الوجد

بكلٍ تداوينا فلم يشف مابنا ... على ذاك قرب الدار خير من البعد

وقال آخر (الزهرة ٢٥٨) .

وخبرتنى ياقلب أنك صابر ... على الهجر من لُبنى فسوف تذوق

فمت كمدا أو عش سقيما فإنما ... تكلفنى مالا أراك تطيق

آداب الحب

والحب - ككل العلاقات الاجتماعية - تعتريه الهفوات والصغائر ويعرض ابن داود للعتاب فيعقد له باب "من لم يعاتب على الذلة فليس بحافظ للخلة" ثم يقسم العتاب **ثلاثة** أنواع : **منها** مايقع من الارتياب ويقصد فيه إلى إزالة الشك من نفس العاتب . **ومنها** : مايقع بعد اليقين ويقصد فيه إلى الوقوف على عذر المعاتب وإلا اعتبر ذنبه نوعاً من الغدر . **ومنها** : مايكون عنيفاً حين يقف المعاتب من المعاتب موقف المستقصى للهفوات والمحصى للزلات يتدفق بها ولايترفق وهذه الحال كما يقول ابن داود :

"حال لاتكاد تجرى بين المتحابين إلا عند انقطاع الحال بينهما أو عند ضجرة شديدة تلحقهما أو تلحق أحدهما" (الزهرة / ١٨٩) .

وهكذا يتدرج أبو بكر فى الحب تدرجه فى النفس البشرية وتغلغله فيها، وكأنه يستنبط ذلك من يوميات أو مذكرات شخصية يسجل فيها مامرت به نفسه تسجيل المراقب الدقيق .

وهو يضع قانوناً على جانب عظيم فى الحب وفى الحياة الاجتماعية عامة : حين يوصى بالترفق فى العتب وصونه عن أن يقع فيه مايخل بالعلاقة بين المتحابين، وتدركه طبيعة المحب ومايمتاز به من الإمتياز والإبقاء على حبيبه وتحمّل المكاره دونه فيقول : "وأحمد أحوال العتاب صيانة الحال عن أن يجرى فيها شىء من الاختلال بقيا

على المذنب لابقيا على المؤنب" وهو لاينصح بترك العتب لأن تركه يدخل عنه فى باب الإهمال بل إن الأمور التى يجرى من أجلها العتب مهما صغر شأنها وقل خطرها لاتلبث أن تجتمع فى النفس - إن لم تصرف - فتحدث فيها انقباضاً قد يسلمها إلى مالا يحمد فى العلاقة بين المتحابين "والموقف على كل ذنب يوجب قطع المواصلة واتصال العتب"[١] ، ولهذا يعقد باب "من عاتب على كل ذنب أخاه فخليق أن يمله ويقلاه" فيذكر أشعار أناس تركوا معاتبة أحبابهم إشفاقاً من تغيرهم وانحرافهم عنهم " ثم يعلق على الأشعار بما فيه استحسان لهذا المذهب (الزهرة / ١٩٥) .

أما الهجر فهو عند ابن أبى داود : على أربعة أضرب : هجر ملال، وهجر دلال، وهجر مكافأة على الذنوب، وهجر يوجبه . البغض[٢] المتمكن فى القلوب"

وليس هجر **الدلال** هجرا حقيقياً كما يقول ابن داود فهو ألذ من كثير من الوصال، على أنه يخشى عليه من طول الأمد .

وأما هجر **الملال** : فيبطله من الأيام والليالى إما بنأى الدار وأما بطول الاهتجار. وأما الهجر الذى يتولد عن **الذنب** فالتوبة تخرجه عن القلب. وأما الهجر الذى يوجبه **البغض** الطبيعى فهو الذى لادواء له" .

وهكذا يزول الهجر بزوال مانتج عنه.

والهجر عند أبى بكر أشد من الموت فهو يورد قول الجاحظ : "لكل شىء رفيق ورفيق الموت الهجر فيعكس ويقول : "وليس الأمر كما قال بل ورفيق الهجر الموت . ثم يورد أشعاراً تأكيداً لرأيه كقول قيس بن الملوح :

---

(١) راجع الحب العذرى ص١٣٨ والزهرة ص/١٨٩ .

(٢) فى الأصل بدون كلمة (البغض) ولعل الصواب ماأثبتناه : راجع الزهرة ص٢٠٣ .

فوالله ثم الله إنى لدائب	أفكر ماذنبى إليها فأعجب
والله ماأدرى علام صرمتنى	وأى أمورى فيك ياليل أركب
أأقطع حبل الوصل فالموت دونه	أم أشرب كأساً منكم ليس تُشرب
أم أهرب حتى لاأرى مجاورا	أم أفعل ماذا أم أبوح فأغلب
وإنهما ياليل إن تفعلى بنا	فآخر مهجور وأول متعب

"وماقيل فى هذا المعنى من الأشعار القديمة والمحدثة أكثر من أن يحيط به كتاب، فضلاً عن أن يتضمنه باب" (ص / ٢٠٤) .

وصدى الإسلام فى حب هذا الفقيه واضح فى كتابه لاسيما وهو يعرض (لآداب الحب) فيذكر أن أهمها : العفة :

وقد عقد لها باب "من كان ظريفاً فليكن عفيفاً" استهله بالحديث الشريف "من عشق فعفّ فكتمه فمات فهو شهيد" . مشيراً إلى فضائل العفة : فهى تصون الحب وتبقى على الود وتمنع من امتهانه أو هبوطه بإشباع الشهوة "ولو لم تكن عفة المتحابين عن الأدناس وتحاميهاماينكر فى عرف كافة الناس، محرما فى الشرائع ولامستقبحا فى الطبائع لكان الواجب على كل واحد منهما تركه إبقاء لوده عند صاحبه، وإبقاء على ود صاحبه عنده" (الزهرة / ١١٧) .

ومن فضل العفة : شعور المحبوب أن علاقته بمحبه تسمو على المنافع وترتفع فوق الدنيا فيستجيب لحبه بارتياح واطمئنان حتى إذا أحسّ أنه يطمع منه بقضاء حاجته أو إشباع غريزته انقشعت عنه نفسه ونأى عنه بجانبه . ومنها : أن المحب حين ينجذب إلى حبيبه بهذه العاطفة المركبة ينجذب إليه بكليته (نفسه وروحه وعقله) فإذا اختلت نسبة الانجذاب اختلت العاطفة وفقدت قوتها .

وفى العفة ضرب من الحرمان يصهر النفس ويقذف بخبثها أو زبدها "وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض" من حب عفيف لايعيب صاحبه فيه كمال إنسانيته

وجمالها . وابن داود يروى طرفاً من أخبار العشاق العذريين فى هذا الصدد فيقول : "بلغنى أن أعرابياً خلا بصاحبته فقيل له : ماكان بينكما ؟ فقال : مازال القمر يزينها فلما غاب زينته، فوضعت كفى على كفها فقالت : مه لاتفسد، فقلت : مايرانا إلا الكواكب فقالت : ويحك ! وأين مكوكبها ؟

فارفضت والله عرقاً ولم أعد" (الزهرة / ١٢٤) .

والجدير أن ابن داود ربط - فى لباقة - بين كياسة السلوك الاجتماعى والعفه. والحقيقة : أن من يضمر الشهوة ويقوم حبه على جاذبية الجسد سرعان ماينكشف زيفه ويزل لسانه ويضطرب جنانه وتتعثر قدمه لامحالة .

إذن فهوى يرى أن الحب الجدير بوصفه عذرياً هو مايعف فيه المحبوب ضناً بعاطفته وحرصاً على تخليدها وهذا مما تفرضه الطبائع الطاهرة .

وهو لايرى أن الحب فى ذاته فضيلة إلا بمقدار عفة صاحبه أما الحب ذاته فهو: ضعف يسوقه القدر لذوى الحس المرهف، وابن داود من أبطال هذا الحب، وقد عف فيما ابتلى به من حب رجاء المثوبة .

وللحب آداب أخرى كثيرة - كالصبر على هجر الحبيب وصدّه وقد عدّه ابن داود حزما "والحازم من صبر على مضاضة التذلل والتمس العز فى استشعار التذلل فحينئذ يتمكن من وداد محبوبه ويظفر من هواه بمطلوبه" (الزهرة / ١٠٠) ويورد أشعاراً لبعض أهل عصره :

أميــلُ إليـك عـن ودٍ قريـب	فتقصينى على النسب البعيــد
فماذنبـى بأن كـان ابن عمـى	سواك وكان عودك غيـر عـودى
سأرحــل عاتباً ويكون عتبـى	علـى غيــر التهــدد والوعيــد
واحفــظ منك ماضيعـت منى	علــى رغـم المكاشـح والحسـود

ثم يعلق عليها تعليق الأديب الفطن فيقول : هذا الكلام وإن كان فيه شيء من التواضع والاستكانة، فإن فيه ضرباً من الضجر الداعي إلى الخيانة، لأن صاحبه لم يصبر على التذلل نفسه" .. ولقد أحسن العباس بن الأحنف حيث يقول : (الزهرة /، ١٠٤ ، ١٠٦)

لابـد للعاشـق مـن وقفـة تكـون بين الوصـل والصّـرم

حتى إذا الهجـر تمـادى بـه راجـع من يهـوى على رغـم

ومن آداب المحب : أن يجمل في زيارته ويعده ابن داود من الحزم أيضاً فيقول : "على أن الحزم لمن سومح بالوصال ألا يرسل نفسه كل الإرسال، فإن ذلك ربما دعا المحبوب إلى الملال وإن كان مقيماً على رعاية الحال ولقد أحسن الذي يقول : (الزهرة/ ١١٦) .

عليـك بإقلال الزيـارة إنهـا تكون إذا دامتْ إلى الهجر مسلكا

فإنـي رأيتُ القطرَ يُسأم دائمـا ويُسـأل بالأيـدي إذا هـو أمسكا

ومن آداب الحب : عدم وصف المحبوب أو ذكر ما فيه من خصال حميدة ويعلل ابن داود لذلك بقوله : "وليعلم أن وصف مافي صاحبه من الخصال المرتضاه مغر بمن علمها بالمشاركة له في هواه ولقد أحسن الذي يقول : (ص / ١٢٦) .

ولسـت بواصـفٍ أبـداً خليـلاً اعرّضـه لأهـواءِ الرجـالِ

ومابالـي أشوّق عيـنَ غيـري إليـه ودونـه سـترُ الحجـالِ

وإذا كان وصف الحبيب أمراً مستقبحاً فمن باب أولى ألا يفشي سرّه وألا يذكر شيئاً من مساوئه .

وكلام ابن داود في هذا الصدد يصدر عن أنانية المحب وحرصه الشديد على أن لايعلم بحاله وبما ينتابه من الوساوس والهواجس أحد خوفاً من طمع غيره . وأعتقد أن المحب الراسخ في الحب قدمه، الواثق من ود محبوبه لايخاف من مثل ذلك على أن

(الوفاء) : من أهم الآداب أيضاً . ويرى ابن داود أن المحب الصادق إنما يعرف حين يفارق محبوبه : "وإنما يبن الصادق فى هواه إذا فارقه أو صدّ عنه من يهواه فأقام حينئذ عليه ولم ينتقل إلى سواه" (الزهرة / ٤٦٩) وفى موضع آخر يتحدث عن الوفاء بلسان الفقيه : "الوفاء إسم للثبات على الشرائط فكل من عقد على نفسه أو عقد عليه غيره ممن يلزمه عقده فثبت عليه ولم يزل عنه سمى موفيا وكل من شرط على نفسه شرطاً وزال عنه للزوال سمى غادراً" (ص / ٤٧٢) . **وابن داود يبدو فى كتابه وكأنه أكثر من شخصية** ، فهو تارة يكتب بروح المختبر المجرب فتأتى نظراته صادقة، يشيع فى أسلوبه جمال النفس المحبة التى صقلها الوجد وزانتها لوعة الحب. وتارة أخرى يبدو فقيهاً متفلسفاً همّه المقدمات والنتائج، وجهده القياس الصورى البعيد عن الواقع النفسى فيخرج كلامه ثقيلاً على النفس يشيع فيه التكلف ويغلب على أسلوبه الاضطراب والتعقيد . وقد تتلاقى هاتان الشخصيتان فيبدو أبو بكر العاشق مثالياً يلزم العشاق بأخلاق الملائكة ويفرض عليهم مالا طاقة لبنى آدم عليه . ذلك حين يتكلم عن مرتبة الكمال فى الحب وعن الحال التامة فيه. وأسلوبه فى ذلك سلس خفيف الوقع على النفس إلا أن الإغراق فى المثالية يثير فى النفس شيئاً من العتب عليه .

وفى كتابه يبدو خجولاً شديد الحساسية يذوب من فرط رقته فيستتر فى رواية شعره ويتوارى خلف أهل عصره وهو قليل التحدث عن نفسه، وماذكر ضمير المتكلم أبداً! (١)

والأعجب من ذلك : أنه على طول كتابه وتعدد أبوابه لم يُشر إلى المرأة بكلمة ولم يتوجه إليها بنصيحة! وكأنه أراد بالحب سلوكاً اجتماعياً ومثلاً عالياً للفضيلة، رغم اعترافه بالغريزة الجنسية وأثر المثير على تركيبها الفسيولوجى! .

---

(١) راجع الحب العذرى د . الجوارى ص١٠٥ .

وقد عبر ابن داود عن المثقفين من أصحاب الذوق والظرف، فتعليقاته النقدية تلاحق مختاراته الشعرية على اختلافها دون تفرقة بين شاعر محب عاشق أو غيره ممن يصطنع الغزل إلا أنه مما يؤخذ عليه : إغراقه فى المثالية، وشغفه - كأهل عصره - بالفلسفة اليونانية، وحشده الأشعار ليكمل العدد الذى قطعه على نفسه فى كل باب مما أدى إلى تكلف فى بعض الأفكار، وتناقض فى بعض الأبواب، وكان هذا على حساب قضايا لم يشبعها تعليقاً وشرحاً كما فى الأبواب (١٧ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٨) وربما بعدت الأشعار عن الغرض كما فى الباب (٣٩) هذا مع تقصيره الشديد فى الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية .

إلا أن الكتاب يبقى معلماً للحب الطاهر (بعيداً عن الإسفاف والشذوذ) معلماً لعلاقة سماوية تربط بين اثنين ائتلفت فى العالم العلوى روحاهما وجمعت بينهما الموافقة فى الطباع والخلال، وفرض عليهما الالتزام بحدود العفة والفضيلة .

-٢-

طوق الحمامة لابن حزم : وحين تكون القضية هى الحب فإن "طوق الحمامة" هو الكتاب المفضل، الذى سبق إلى تشريح الحب وتحليل العاطفة، ومانال كتاب فى الحب شهرته لدى الدارسين، ولعل ذلك راجع إلى الأمور الآتية :

أولاً : اطلع ابن حزم على ماكان يجرى فى عصره من حوادث الحب عن طريق الأصحاب والنساء اللاتى كن يعرفنه عن قرب .

ثانياً : اطلاعه على كتاب "الزهرة" لابن داود فكان أساساً لصرحه العاطفى.

ثالثاً : استطاع ابن حزم أن يحقق التوازن الدقيق فى المحاور التالية [١].

١ - التوازن بين الذات والموضوع أو الأنا والآخرين .

٢ - التوازن بين حاجات الجسد وتطلعات الروح .

٣ - التوازن بين الواقع والتأمل الفلسفى .

---

(١) راجع الحب فى التراث العربى ص١٣٠ ومابعدها .

وتلك المحاور الثلاث تعتبر جوهر مفهوم الحب عند ابن حزم، ففى المحور الأول نجده لاينحو منحى ابن داود فيعتمد على الاقتباسات الشعرية بل يجعل ذاته وتجربته الخاصة هى البداية ثم يتوسع فيضم تجارب معاصريه ممن لاحظهم أو سمع منهم مباشرة. لهذا يرفض أخبار الأعراب والمتقدمين ويعلل بقوله : "فسبيلهم غير سبيلنا ومامذهبى أن أنضى مطية سواى" (ص / ٣) وكأنه يضع نظرية مؤداها : أن التجربة العاطفية فردية فى جوهرها ولاتتكرر وإن تشابهت مواقف العشاق فهو الشبه الخارجى !

أما المحور الثانى : فمع أن كلمة "العذرية" لم ترد فى كتابه ولم يعن بحب المتصوفة إلا أن لم يهبط بحاجات الجسد ولم ينسى واجب العفة وحق الوفاء، وابن حزم يفهم نفسية المرأة كما يفهم نفسية الرجل ويرى مواطن الضعف والقوة فيهما فهو لا يجور فى حكمه حين يقول : "وإنى لأسمع كثيراً ممن يقول الوفاء فى قمع الشهوات فى الرجال دون النساء فأطيل العجب من ذلك وإن لى قولاً لاأحول عنه : الرجال والنساء فى الجنوح إلى هذين الشيئين سواء ومارجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن له ثم من مانع إلا وقع فى شرك الشيطان واستهوته المعاصى .. وماامرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته" (ص / ١٤٥) ولاتمنع نظرته الواقعية هذه من وجود العفة والصلاح فى الجنسين شريطة البعد عن دواعى الزلل : ":فالصالحة من النساء هى التى إذا ضبطت انضبطت وإذا قطعت عنها الزرائع أمسكت.." (ص١٤٦).

والمحور الثالث : يقرر أن الحب لايقوم إلا بين اثنين متشابهين رغبة وتطلعا، ثم يفرق بين غرائز الرجل والأنثى فيجعلها تابعة إلى توزيع العمل فى النظام الاجتماعى المرتبط بالحب ودواعيه فيقول :

"وإنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيها فى تزويج يتيمة وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة" .

ثم يعلل لتمكن أسباب الحب من النساء : "وماأعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الجماع ودواعيه والغزل وأسبابه .. لاشغل لهن غيره ولاخلقن لسواه" (ص / ٥٩) .

فهو يربط بين غريزة المرأة وأسلوب تقسيم العمل فى الجماعة وهو يسجل للمرأة قدرة على حفظ أسرار الحب، وذلك امتداد طبعى لعملهن السابق فيقول : "ومارأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهى عند النساء ممقوته مستثقلة" وليس هذا عند الرجال بل نرى أنفة الرجل من تزويج ابنته أو أمه كما يسجل حساسية مفرطة للمرأة فى التقاط ميل الرجل إليها وحركته الهاجسة : "وأعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج فى الآثار" (ص / ١٣١) .

سبب تأليف الكتاب :

وقد ألفّ ابن حزم كتابة إجابة لرغبة صديق عزيز عليه طلب إليه أن يكتب له رسالة فى الحب وأحواله، فأجابه بعد الحمد والتحية قائلاً "وكلفتنى أعزك الله أن أصنّف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه .. فبادرت إلى مرغوبك ولولا الإيجاب لك لما تكلفته" (ص/٢) .

هكذا يتشابه الدافع على التأليف عند ابن حزم مع سابقه ابن داود، ولاحقه ابن الجوزى فى توجيه الخطاب إلى شخص غير محدد، وإظهار الاستجابة لرغبته بتصنيف رسالة فى الحب، **وأنا أرى** : أن هذه الأشخاص غير شخصية، وإنما يجرّد الكاتب من نفسه شخصاً - على غرار شعراء العرب - ليعلنوا عما فى نفوسهم، وتقية لخصومهم. فابن داود : يرى فى دراسته العاطفية متنفساً لما ابتلى به من حب منذ طفولته .. وفى الوقت ذاته يُعاب عليه وهو إمام المذهب الظاهرى، لهذا يدافع عن نفسه - كما مر- فيعزى الدافع إلى شخص طلب إليه ذلك . ويمر ابن حزم بمثل تلك الظروف فهو إمام المذهب الظاهرى، وهو حاد الطبع عنيف المنافسة، ربما لمرض أصيب

به فى طفولته، أو لتقلب حياته بين الرخاء المترف والشدة ...، بين الوزارة والسجن، وقد ظهر ذلك فى كتابته وأسلوب صياغته فـ (الأنا) مسيطرة عليه دائماً، والعيب دائماً يقع عند الآخرين ومن سوء تقديرهم. (١)

ويرى د . طه حسين : أن طوق الحمامة وضع لغاية (بيانية تعليمية) : "قصد به إلى أن يعلم الشعراء والكتاب .. كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يصفونه فى الشعر والنثر" (٢) .

ويرى آخر : أن الكتاب ثمرة من ثمرات المذهب الظاهرى الذى يميل إلى الأخذ بالظاهر، ولايتحرج عن المواجهة الصريحة مع علم ابن حزم أن بعض المتعصبين سوف ينكر عليه هذا المسلك التأليفى (٣) .

وقد احتاط ابن حزم لمواجهة بعض المتزمتين من الفقهاء الذين عابوا عليه إنفاق الوقت والجهد فى مثل هذا العمل، وأن الكتابة فى العشق أمر لايليق بالفقهاء، لهذا دافع عن نفسه - كما فعل ابن داود - فبرر لهذا بما روى بسنده عن أبى الدرداء أنه قال : "أجمّوا النفوس بشىء من الباطل ليكون عونا لها على الحق" وقول بعض السلف : "من لم يحسن يتفتى (٤) لم يحسن يتقوى" وبالقول المأثور : أريحو النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد" (٥) .

---

(١) راجع الحب فى التراث العربى ص ٧٢ .

(٢) ألوان د . طه حسين ص١١٧ الطبعة الخامسة دار المعارف بمصر .

(٣) الحب ومذاهبه النفسية والجمالية د . الصادق عفيفى ص ١٨٧ .

(٤) يتفتى : يكون فتى فى مرحه ودعابته . الطوق ص ٢ ، ٣ .

(٥) راجع مشكلة الحب د . زكريا إبراهيم ص ٣٢٢ ومابعده .

كما يسجل عظمة تلك العاطفة وجلالة الحب وقداسته فيقول : "... دقّتْ معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة وليس بمنكر فى الديانة ولابمحظور فى الشريعة إذ القلوب بيد الله عز وجل" .

وابن حزم يدفع بذلك ظن من توهم أن حديثه عن الحب حديث عن الجنس والشهوة والفاحشة فهو أحرص مايكون على إبراز قدسية تلك العاطفة خصوصاً وقد أحب من بين الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثيرون، وكذلك حريص على التنبيه إلى أن الحب خبرة معاشة فلا يدرك حقيقته إلا من كابده وعاناه .

لايعرف الحب إلا من يكابده ولاالصبابة إلا من يعانيها

ولهذا هو دائماً يستند فى حديثه إلى تجربته الخاصة .

على أنه لم يتكلم أحد من علماء المسلمين فى (الحب) إلا أشار إلى ماهيته وعلة وقوعه وابن حزم لايقبل مارواه ابن داود عن أفلاطون : "من أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ثم قطعها أيضاً فجعل فى كل جسد نصفا.."

ولكن ابن حزم رأى أن الحب : "اتصال بين أجزاء النفس فى أصل عنصرها الرفيع" وقد علل بقوله : "والشكل إنما يتبع شكله .

والمثل إلى مثله ساكن وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد والتنافر فى الأضداد والموافقة فى الأنداد موجود بيننا فكيف بالنفس وعالمها الصافى الخفيف" (ص/٧) .

وتعريف ابن حزم للحب لايخلو من التأثر بالنظرية الأفلاطونية فى قوله : "إن المحبة استحسان روحانى وامتزاج نفسانى" ولكنه لاينص على الأصل اليونانى لهذه النظرية بل هو يحاول ردّها إلى الآية الكريمة "هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق

منها زوجها ليسكن إليها"[١] فجعل علة السكون أنها منه وحجة ابن حزم هنا أنه لو كانت علة الحب هى جمال المحبوب أو حسن الصورة الجسدية، لما كان المحرومون من الجمال أو ناقصوه موضعاً لحب فى حين أن التجربة شاهدة على أن كثيراً من المحبين قد يتعلقون بالأدنى، وهم يعلمون فضل غيره، دون أن يجد الواحد منهم محيداً لقلبه عنه "ولو كان للموافقة فى الأخلاق لما أحب المرء من لايساعده ولايوافقه"

فلابد إذن من أن يكون **الحب شيئاً فى النفس** وأن يكون سر التمازج والتباين فى المخلوقات **إنما هو الاتصال والانفصال**[٢] ثم يدلل على ماذهب إليه فى شأن الموافقة والمجانسة بقوله :

"ومن الدليل على ذلك أنك لاتجد اثنين يتحابان إلا وبينهما (مشاكلة) واتفاق فى الصفات الطبيعية، لابد من هذا وأن قلّ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة، وتأكدت المودة، فانظر هذا تراه عياناً، وقول الرسول (ص) يؤكده : (الأرواح جنود مجندة، ماتعارف منها ائتلف، وماتناكر منها اختلف" (الطوق ص ٧ ، ٩) .

وعلى كل حال : نرى ابن حزم متأثراً بفكرة المشاكلة التى سبق إليها ابن داود أما رفضه للخرافة الأفلاطونية التى رواها ابن داود فإنما : يدل على قصر باعه فى الفلسفة وقلة ذات يده فيها فهو يخلط بين النفس والروح خلطاً فيزعم أن للنفوس عالماً علوياً وعنصراً رفيعاً وذلك لايكون إلا للروح إذ النفس هى مجموعة القوى التى تصدر عن التركيب الإنسانى من عقل وإحساس وانفعال . أما الروح فهى التى تستمد منها النفس قوتها وقد قسم ابن سينا النفس إلى أقسام منها النفس الناطقة والنفس الشهوانية والنفس الحيوانية وتحت كل من هذه الأقسام تتدرج القوى التى ذكرناها .[٣]

---

(١) سورة الأعراف آية / ١٨٩ .
(٢) الطوق ص / ٧ ، ٨ .
(٣) راجع د . الجوارى ص ١٧٩ .

علامات الحب : وللحب أعراض وعلامات لايمكن إخفاءها، وقد سبق ابن داود بالاهتمام بها من خلال (الشواهد الشعرية) بينما اهتم بها ابن حزم من خلال (الملاحظة والاستقصاء) وأولها : إدمان نظر المحب إلى جهة المحبوب يتتبعه ويميل إليه حيث مال كالحرباء مع الشمس ومنها : إقبال المحب بحديثه على المحبوب والالتفات إليه والإنصات لحديثه .. وتصديقه وإن كذب وموافقته وإن ظلم .. ومنها: الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه والتعمد للقعود بقربة والتباطؤ فى الشىء عند القيام عنه .

ومنها : زهول يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة .

ومنها : اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة .

ومنها : أن يجود المحب بما يملك ليبدى محاسنه، فكم من بخيل جاد وقطوب تطلق وجبان تشجيع، وجاهل تأدب وفقير تجمل ومصون تبذل .. ومن علامات الحب لكل ذى بصر :

الانبساط الزائد، والتضايق فى المكان الواسع والمجاذبة على الشىء يأخذه أحدهما وكثرة الغمزة الخفى ، والميل بالاتكاء .. وشرب فضلة مابقى المحبوب فى الإناء، وتحرى المكان الذى يراه فيه، والارتياح لسماع اسم المحبوب والتلذذ بأخباره .. وابن حزم يستشهد بالأشعار والأخبار التى عايشها وسمعها عن قرب[١] .

مراتب الحب : وقد فرّق ابن حزم بين مراتب الحب وذكر أن أعلاه منزلة الحب الذى يكون فى الله ولله لالدنيا ولالعرض من أعراضها ويلى ذلك منزلة محبة الصداقة

---

(١) راجع الطوق ص ١٤ ومابعده .

والألفة والتى تقوم على روابط وثيقة من الدين والوفاء والخلق القويم وتلك هى أدوم الصداقات وأبقاها على الزمن[١] ، ثم تأتى محبة العشق التى لا سبب لها إلا اتصال النفوس، وهى أيضاً مراحل تسلم كل واحدة منها إلى مايليها وأولها : الاستحسان ثم الإعجاب : أى رغبة المستحسن فيمن استحسنه، وهو الذى سماه ابن داود (بالمودة) والمرتبة الثالثة :

الألفة : أى الشعور بالوحشة إذا غاب المحبوب عن المحب ثم تصير الألفة (كلفا) حين يستحوذ المحبوب على التفكير ويتمكن من الخواطر أما الحالة الخامسة والأخيرة فهى (الشغف) وذلك حين تتحكم الهواجس ويمتنع المحب عن النوم والأكل والشرب إلا اليسير وليس وراء الشغف - عند ابن حزم - منزلة قال تعالى : "قد شغفها حبا"[٢] بل قد يؤدى الشغف إلى المرض والتوسوس أو الموت . ولعل من المفيد أن نرجع البصر إلى (مراتب الحب) عند ابن داود : حيث جعلها ثمانى، وهو قد أفرط فيها فأدخل أحوالا تطرأ على الحب أو صفات تغلب عليه فى بعض الأحوال . وأحسب أن ابن حزم كان أكثر توفيقاً فى بيانها[٣].

سر الإعجاب بالجمال : شغل به كثير من الباحثين منذ فسّره ابن حزم بأنه الشهوة غالباً فقال : "فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شىء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة فهى إذا رأت بعضا تثبتت فيه فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة وذلك هو الشهوة " (الطوق / ١٠) .

---

(١) راجع مقدمة الطوق د . عبد العزيز عزام .

(٢) سورة يوسف آية / ٣٠ .

(٣) راجع الحب العذرى ص ١٨٥ .

مع أن من المحبين من أحب الجميل من غير أن ينال منه الإسعاد أو المواصلة.
والإعجاب بالجمال : أكسير هذه الحياة به يتعاطف الإنسان مع الإنسان ومع غيره من مظاهر الكون .. حتى فى مقام الصلاة يتقدم المصلين إماماً أجملهم وجها إن لم يوجد الأقرأ، كما روت عائشة أم المؤمنين : "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله عز وجل، فإن كانوا فى القراءة سواء فأصبحهم[1] وجهاً" وعن ابن عباس عن رسول الله (ص) "النظر إلى الوجه الجميل يجلو البصر، والنظر إلى الوجه القبيح يورث الفلج"[2] .

ورأى ابن حزم أن الحب يبدأ شهوة واستحسانا ثم تنفصل الشهوة وتزول أو تصبح شيئاً ثانويا، وهو رأى بعض علماء النفس المعاصرين ولكن من الحب العذرى مايبدأ من قبل أن تظهر الشهوة، يبدأ ألفة بين حبيبين يستلطف أحدهما الآخر ويرتاح لصحبته ثم تستيقظ فى النفس غريزة الجنس فيحسُ كل منهما إحساساً مبهماً يربطه بأليفه ويجذبه إليه أكثر من ذى قبل وهكذا حتى تكتمل فيهما عاطفة الحب[3] .

وعن سر **الجمال** فى النفس يقول الشيخ أمين الخولى : "الجمال روح هذا الكون وهو مبعث الغبطة الروحية، والنشوة النفسية مما نجده ولانراه، ونحسُه ولانحده"[4] .

وابن حزم الفقيه الفطن يعود ليفرق بين الحب والشهوة، فالحب إنما يكون : "إذا فصلت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصل اتصال نفسانى تشترك فيه الطبائع" (ص ٣١) .

(١ ، ٢) أى أجملهم (أخبار النساء / ٢١ ، ٢٢ .
(٣) د / الجوارى ص / ١٨١ .
(٤) مشكلات عواطف الشباب ص / ٤٢٥ .

وهناك نوع من الحب : يقع دون معاينة ، بدايته المراسلة والمكاتبة، وابن حزم يعقد له : "باب من أحب بالوصف" ويفسّر هذا النوع من الحب : بأن النفس تتخيل المحاسن، فتألفها وتتعلق بها وهو حب على غير أساس قوى، فربما تأتى المعاينة لتؤكده أو تنفيه تماماً .. !

"وإذا كان كثير من المصلحين والكتاب الاجتماعيين قد انكبوا على معالجة مشكلات الحياة الزوجية والعائلية، ففى يقينى أن السرّ فى تلك المشكلات هو انفصام للرابطة الزوجية، واندعام توافر العلاقة السحرية التى تجمع بين الجنسين، وافتقاد الحسّ الباطنى الذى يقوم على الحب ويهدى الشخص فى لمحة من اللوامح الخاطفة إلى الأليف الذى يكمل شخصه، ويسعد نفسه. ولذلك لانعجب إذا رأينا ابن حزم يحدثنا عن (الحب بالوصف) فيقول : "وللحكايات ونعت المحاسن ، ووصف الأخبار تأثير فى النفس ظاهر .. وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير لابد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهّمها .. ثم يقول : "وحب النساء فى هذا أثبت من حب الرجال لضعفهن، وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن وتمكنه منهن" (١)

وهذا الاستنباط الجيد فى الحب أو فى العلاقات الاجتماعية مما يحمد لابن حزم! ومما سبق يمكن أن نقرر حقيقة هى : "أن الباعث على الحب هو الجمال، وأن الجمال عادة يكمن فى الطبيعة والمرأة، الطبيعة بما فيها من جمال وقيم، والمرأة بما فيها من إشعاعات ومعان" (٢) .

فأى نفس لاتعشق الجمال ! وأى قلب لايصبو إليه !

---

(١) الحب ومذاهبه النفسية والجمالية ص ١٥٥ والطوق ص ٢٥ .

(٢) الحب ومذاهبه النفسية والجمالية ص / ٩٩ .

وقد وضع ابن حزم **نظرية معاصرة جيدة** تفرق بين الحب والشهوة فالحب الذى يقع من أول نظرة لايكون حباً متمكناً من النفس راسخاً فى القلب إذ هو شهوة عابرة! وابن حزم بهذا : يكشف عن عقلية سيكولوچية ممتازة لأنه يربط الحب بالزمان ويقيم العاطفة على تعدد التجارب وارتباطها بموضوع واحد فيبين لنا كيف أن للاستقرار النفسى دوراً هاماً فى تأصيل عاطفة الحب ودوامها وكيف أن "مادخل عسيراً لم يخرج يسيرا" [١]

وهو يؤكد ذلك بحديثه عن نفسه : "وإنى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولاأكاد أصدقه ولاأجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة .. ومالصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى دهراً وأخذى معه فى كل جد وهزل وكذلك أنا فى السلو والشوق فما نسيت وداً لى قط وأن حنينى إلى كل عهد تقدم لى ليغصنى بالطعام ويشرقى بالماء " ص/ ٣٠ أى أنه يجعل من دوام المشاهدة قاعدة لأصالة الحب وثباته .

وابن حزم فى هذا أيضاً يتفق مع ابن داود الذى أشار إلى هذا [٢] حين وضع للحب مراحل إذا قطعها المحب واحدة بعد واحدة كان الحب على التمام فى المصافاة وإلا كان انقضاؤه قريباً كما كان ارتقاؤه فيها سريعاً . إلا أن ابن حزم كان أوضح وأوقع .

وفى باب "من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها" يطرح قضية نفسية غاية فى التحليل والتدقيق فلو أن إنساناً اضطر لتكرار تجربة الحب فى القول فى حبه الثانى هل يسلك نمطاً جديداً أم يقع فيما وقع فيه فى حبه الأول ؟

---

(١) مشكلة الحب ص ٣٢٨ .

(٢) الزهرة ص ٦٢ .

يقرر ابن حزم أن لكل إنسان أسلوبه فى سلوكه العاطفى ونمطه الشخصى الذى لايتغير ولايكاد يقوى على تغييره وإن تكررت تجربته العاطفية! "وهو يكاد ينص على مااصطلح علماء التحليل النفسى اليوم على تسميته باسم "التثبيت" وهو عبارة عن ارتباط المرء فى صباه بشخص أو شىء ارتباطاً وثيقاً، بحيث يدوم هذا الارتباط حتى بعد انتقاله إلى مرحلة النضج النفسى أو البلوغ العاطفى"(١)

ويؤكد ابن حزم هذا بما لاحظه على بعض معاصريه فى قوله : "وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القِصَر فما أحب طويلة بعد هذا وأعرف أيضاً من هوى جارية فى فمها فوه لطيف، فلقد كان يتقذذ كل فم صغير ويذمه ويكرهه.." كما يخبر عن نفسه بقوله : "وعنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو كانت على صورة الحسن نفسه وأنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت لاتواتينى نفسى على سواه، ولاتحب غيره البته" (الطوق / ٢٨) .

وفى باب "الإشارة بالعين" يحدثنا عن نوع من أساليب المحبين فى الإعراب عن حبهم. من ذلك لغة العيون وإشارات الألحاظ : "وأعلم أن العين تنوب عن الرسل ويدرك بها المراد . والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً وهى رائد النفس الصادق ودليلها الهادى ومرآتها المجلو التى بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات" (ص / ٣٩) .

هكذا يوازن بين الواقع والتحليل النفسى مستعيناً بنزعته الفقهية القائمة على تقصى المسائل وتفتيت الكل إلى أجزاء .

---

(١) مشكلة الحب ص / ٢٣١ .

أحوال الحب : وللحب أحوال منها : أن يجتهد المحب فى (كتمان حبه) وإخفاء سره، وتلك من (آداب الحب) عند ابن داود - كما سبق - وقد دعا المحب للكتمان وأشار إلى مايتصبّر به من ظواهر طبيعية : كالأطلال والآثار وهبوب الريح ونوح الحمام .. وقد يلتمس العزاء فى الخيال ومسامرة الذكرى . أما نحول الجسم فمما لاحيلة فى كتمانه . وكل محب متشوق بما ذكر من ظواهر متصبر بها فحبه ناقص، وتلك نزعة مثالية فى حب ابن داود . (الزهرة ص ٣٠٣ ومابعدها) .

أما ابن حزم فقد ذكر أن المحب لايقوى طويلاً على كتمان سرّه فهو بحركاته ونظراته سرعان مايعرف حبه ويكتشف أمره فإذا الناس يلحظون اضطرابه عند رؤية محبوبه ويدركون من خلال إشاراته وحركاته ماانطوت عليه مشاعره.. الخ. ثم يعرض لدواعى كتمان الحب، فيرد - بداية - على من يكتم حبه لئلا يوصف بأنه من أهل البطالة فى زعمه فيقول : "وماهذا وجه التصحيح فيحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة" (ص / ٤٤) **ويرى أن أهم أسباب الكتمان** : إبقاء المحب على محبوبه وصونه وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع . (ص / ٤٥) **ومن الأسباب أيضاً** : توقى المحب نفسه لجلالة قدر المحبوب، فبعض شعراء قرطبة تغزل بصبح "أم المؤيد" فغنت بشعره جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبى عامر ليبتاعها فأمر بقتلهما (ص / ٤٦) **ومن الأسباب** : الحياء الغالب على المحب (ص / ٤٧) .

والحقيقة أن حديث ابن داود عن **كتمان الحب** كان أرحب أفقاً من ابن حزم وأعمق منه نظراً حيث لم يقتصر على كتمان المحب حبه عن الآخرين وإنما عرض أيضاً لكتمان المحب حبه عن المحبوب نفسه .. ويخيل إلىّ أن ذلك كان رهناً بطبيعة الحب كما أدركه كل منهما وكما اختبره وتقلب فى أحواله، فقد كان محبوب ابن حزم طوع يديه إلى حد بعيد ولم يكن يتكلف فى رضاه كثيراً .. وهكذا يكون حب المترفين

غالباً.[١] وقد أشار ابن حزم إلى ذلك فى قوله : "ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالايكاد يعلمه غيرى لأنى ربيب فى حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولاجالست الرجال إلا وأنا فى حدّ الشباب وحين تفيل وجهى. وهن علمننى القرآن وروّيننى كثيراً من الأشعار.." ص / ٥٩ .

إلا أنه لم يرفع ذيله على حرام كما أقسم على ذلك أغلظ الإيمان وهذه النشأة تختلف عن نشأة ابن داود فقد كان حيياً رقيقاً خجولاً تزعجه الهمسة وتضايقه الإشارة وتربى فى أسرة فقيرة، مات أبوه إمام المذهب الظاهرى ببغداد فتبوأ كرسيه فى رئاسة المذهب وهو صغير وابتلى بالحب العارم فسجل فى الزهرة تجربة ذاتية لعاشق مسكين .!

آفات الحب : وللحب آفات تكدر صفوة أولها : **العاذل** : وهو أقسام فأفضلهم "صديق قد اسقطت مؤونة التحفظ بينك وبينه" وكان رفيقاً يدرك متى يستثقل الكلام .

"ثم عاذل زاجر لايفيق أبداً من الملامة وذلك خطب شديد وعبء ثقيل" . على أن من المحبين من يملأ الحب قلبه فلا يبالى بالعاذل وقد يلذ له عذله ليريه عصيانه إياه ومخالفته له، وقد شاهد ذلك ابن حزم فيمن عرف من المحبين .(ص / ٥٦)

ويتبع ابن حزم (العاذل) بباب (المساعد من الإخوان) فيسجل حرص النساء على الكتمان وشغفهن بإصلاح ذات البين من المحبين وهذا - كما ذكر - من أسباب تمكن الحب فيهن .

ومن آفات الحب : (الرقيب) "وإنه لحمى باطنه وبرسام ملح .. والرقباء أقسام : فأولهم حسن النيـة ليـس دأبه ولاغرضه المراقبة والتكدير بل أوقعه عليهما سـوء

(١) الحب العذرى ص / ١٩١ ، ١٩٢ .

الطالع.. ثم "رقيب فضولى" : يروى فضوله ويشفى غليله، يرمقهما من طرف خفى لاتفوته حركة (ص / ٦٠) .

وأشنع مايكون الرقيب : إذا كان مما امتحن بالعشق قديماً ودهى به وطالت مدته فيه ثم عرى عنه بعد أحكام لمعانيه .. فتبارك الله أى رقابة تأتى منه وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته .(ص / ٦٢)

ومن آفات الحب (الواشى) وهو أنواع : أحدهما يسعى بين المتحابين ليقطع أسباب المودة ، وآخر أشد خطراً يسعى لقطع مابين المتحابين ليستأثر هو بالمحبوب يتوسل لذلك بكل الوسائل (ص / ٦٣) وثالث الوشاة : من يسعى بين المحبين ليكشف سرّهما، وهذا لايلتفت إليه - رغم خطورته - إذا تأكدت الثقة بينهما . ويبدو أن ابن حزم لقَى فى حبه أوفى حياته من الوشاة بلاءً مبيا، نرى شيئاً من ذلك فى قوله : (ص / ٦٤) .

عجبت لواشٍ ظل يكشف أمرنا	ومابســوى أخبارنا يتنفَّــسُ
وماذا عليه من عنائى ولوعتى	أنا آكل الرمان والولد تضرس

ففى البيت الثان اقتباس من التوراه : "الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأولاد ضرست" وقد التوى ابن حزم بالمعنى إذ جعله سخرية من الواشى الذى يضرس بما يشاهد من محبة العاشقين فى حين يفوز المحب بالرّمان نفسه، وهذا الاقتباس الإسرائيلىّ الخاطف كان فاتحة لعدد هائل من القصص الوعظية الإسرائيلية فى كتب الدراسات عن عاطفة الحب وصراع الشهوة والعفة، كما نرى مثلاً فى مصارع العشاق عن قصة يوسف - عليه السلام - وغيرها .[1]

(١) راجع الحب فى التراث العربى ص٢٢٥ ومصارع العشاق جـ١ / ١٦٥ ومابعدها .

وللحب آفات أخرى كثيرة كالهجر والبين والعتاب والسلو .. إذ هو ظاهرة بشرية تخضع لسائر الظواهر البشرية الأخرى، لهذا يختم ابن حزم حديثه عن (آفات الحب) بالموت، اعتقاداً منه بأن "كل ماله أول فلابد له من آخر".

أما الغيرة : فهى من غرائز المرأة المطبوعة عليها، ومرد ذلك إلى سوء الظن الذى فطرته عليه .

وتمتد براعة ابن حزم الفقيه الفنان حين يرسم صورة دقيقة للمرأة حين تتحكم الغيرة فتبدل عاطفتها من الحب إلى الكراهية أو من الرغبة إلى النفور فيقول : "ولقد رأيت امرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عز وجل فعهدتها أصفى من الماء وألطف من الهواء .. ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفظع من الموت وأنفذ من السهم وأمر من السقم وأوحش من زوال النعم .. وأبشع من السم الزعاف" (ص / ١٥٦) .

حينئذ تتمنى المرأة موت الرجل وتجد فى موته راحة وعزاء لها عن خيانته كتلك التى كانت تقول بعد وفاة زوجها : "مايقوى صبرى ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لايضمه وامرأة مضجع أبداً، فقد أمنت هذا الذى ماكنت أتخوف غيره وأعظم آمالى اليوم اللحاق به" ويحكى لذلك أمثلة من واقع عصره (ص / ١٣٨) ذلك هو قول العاشق الدائب الذى امتحن الأمرين وذاق الحالين .

ويوازن د / الطاهر مكى بين (آفات الحب) عند ابن حزم وابن داود مفضلاً ابن حزم بقوله : "فالبون شاسع بينهما ... ولايدين أديب قرطبة ولابسطر واحد مما كتب لأفكار فقيه العراق " .

ويعلل لذلك بأن ابن داود إنما استعان بشعر غيره "جرياً" على عادته والتزاماً بمنهجه أبياتاً وراء أخرى دون تعليق منه" أما ابن حزم فقد "ضرب الشواهد من حياته نفسه ومن أحداث صحبه ووشّاه بأبيات من شعره منشداً أو متذكراً" [١].

بينما يوازن د / الجوارى فى هذا الصدد فيرى النقيض تماماً ، لهذا يفضل ابن داود . معللاً بأن استشهاد ابن حزم بشعره : "أفسد كتابه وأساء إليه ، فهو يتكلف فى شعره تكلفاً يصل به أحياناً إلى السماجة فينظم معانى الأبواب فى أبيات ثقيلة على النفس لايكاد يسيغها الذوق .

ويروى قوله :

منهم فتى كان فى محبوبه وقص [٢]	كأنمـا الغيد فى عينيـه جنان
وكـان منبسطـاً فى فضل خبرته	بحجـة حقها فى القـول تبيـان
إن المهـا وبهـا الأمثـال سائـرة	لاينكر الحسن فيها الدهر إنسان
وقـص فليس بهـا عناق واحـدة	وهل تـزان بطول الجيد بعـران ؟

ثم يقول معلقاً :

هكذا نرى أن شعره هذا أشبه بالشعر التعليمى يحاول أن ينظم به معانى الباب الذى كان يتكلم فيه وهو "باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها" وليست هذه الغثاثة بقاصرة على هذا الطراز من شعره ولكنها تشيع فى أغلبه حتى الذى يخاطب به الحبيب :

وإنى وإن تعتبت لأهون هالك	كذائـب نقر زل من يد جهبـذ
على أن قتلى فى هواك لذاذة	فياعجبـا مـن هالك متلـذذ

---

(١) دراسات عن ابن حزم ص ٢٩٤ .

(٢) الوقص : الصيب والنقص . والأبيات بالطوق ص ٣٥ .

ثم يدفع د / الجوارى عن نفسه مظنة الاختيار الردىء فيقول : فشعره فى الغالب سواء فى الخلو من العاطفة وفى هزال المعانى وبرودة التشبيه وركاكة الأسلوب.. وقد أفسد بإيراده الكتاب وقطع على القارىء لذة التمتع بأسلوبه الأنيق الجميل فى النثر حتى لايكاد يصدق أن هذا الشعر لصاحب هذا النثر لولا أن يفاخر بنسبته إليه ويعتز به[١] .

والذى أراه حسماً لهذا التناقض : أن ابن حزم قد عبر عن شعوره بما فيه بلاغ وأدى مايجول بخاطره منظوماً والشعر الحديث إنما يعنى بنظم المشاعر والأحاسيس كتلك التى نقلها إلينا ابن حزم بما جعلنا نحس إحساسه بقطع النظر عما استعمل من الفاظ معهودة عند الفقهاء مثلاً أو غيرهم ، ونحن لو تتبعنا العديد من فحول الشعراء لوجدنا كثيراً من السقطات إما بلفظة نابية أو قلق فى عبارة أو ضيق باقتباس أو كسر لوزن .. الخ فلا يخلو عمل من مواطن الضعف ولايعلو على النقد، وقد يحمد لابن حزم ارتجاله النظم فى كل موضع وفى كل موقف له أو لغيره، إلا أن تسرعه فى النظم كان ثغرة لبعض مآخذه وتلك نتيجة طبيعية .

وقد عرض ابن حزم **لآداب الحب** : وهو فى هذا يقصر عن ابن داود ولايلحق به، فقد اقتصر من آداب الحب على **الوفاء** : وقسمه ثلاث مراتب أولها : "أن يفى الإنسان لمن يفى له وهذا فرض لازم وحق واجب على المحب والمحبوب لايحول عنه إلا خبيث المحتد لاخلاق له" والثانية : "الوفاء لمن غدر ويلزم بذلك المحب دون المحبوب" وهذه - كما يقول : "خطة لايطيقها إلا جلد قوى واسع الصدر.." وقد عرض ابن داود لثانى تلك المراتب وعقد لها باب "من غلبه هواه على الصبر صبر، لمن يهواه على الغدر" وأشار إلى أن هؤلاء يغلبهم الهوى فيعطل فيهم التمييز ويبطل عندهم فعل

---

(١) د . الجوارى ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

الإرادة (الزهرة ص ٢٤٣) وثالث مراتب الوفاء : أن يفى المحب لمحبوبه" مع اليأس وبعد حلول المنايا وإن الوفاء فى هذه الحالة لأجل، وأحسن منه فى الحياة ومع رجاء اللقاء" .

وقد جعل ابن حزم للوفاء آداباً وشروطاً : "وللوفاء شروط على المحبين لازمة فأولها أن يحفظ[١] عهد محبوبه ويرعى غيبته وتستوى علانيته وسريرته ويطوى شره وينشر خيره .. ويحسبه منه حينئذ كتمان خبره وألا يقابله بما يكره ولايخيفه به"[٢] .

ولقد كان ابن حزم أخف على المحبين فى آداب الحب من سلفه محمد بن داود وأرفق بهم منه فقد حِملهم ابن داود ماتنوء به الجبال وتهوى تحت طائلة أشداء الرجال ولكن ابن حزم كان واقعياً أفاد من سيرته ومن مشاهداته فلم يسترسل فيما استرسل فيه ابن داود المثالية التى لاتطيقها أبناء آدم .. والتى لاتوجد إلا فى أخلاق الملائكة[٣] .

وابن حزم يقيد بالوفاء : "المحب" لا "المحبوب" ويعلل بأن المحب هو البادىء بالمودة، والمحبوب مخيرّ فى القبول أو الرفض . والفارق بينهما كالفارق بين المغناطيس وقطعة الحديد التى تنجذب إليه، فنفس المحب قاصدة إلى نفس المحبوب، باحثة عنه مشتهية لملاقاته جاذبة له لو أمكنها، والحركة إنما تكون من الأقوى. وابن حزم يتلاقى مع الكاتب الفرنسى "ستندال" الذى يقول : "إن الرجل فى الحب مهاجم، والمرأة مدافعة، والرجل مخاطر جسور بينما المرأة متوجسة متخوفة.[٤]

---

(١) فى الأصل فأولها يحفظ بدون "أن" .

(٢) الطوق / ٩٣ - ٩٦ .

(٣) د . الجوارى ص / ٢٠٧ .

(٤) مشكلة الحب ص ٢٣٦ والطوق ص ٩٦ .

أبعاد الحب عند ابن حزم : يمكن أن نجملها فى ثلاثة أبعاد :

١ - **البعد الفلسفى** : وقد أفاد ذلك من قدرة العقل الأندلسى على إمعان النظرة، وربط الأسباب بالمسببات، كما أفاده من ثقافته الكلامية المذهبية فقد كان رجل فكر وفسلفة، من ذلك قوله : "وإنى ماورويت قط من ماء الوصل إلا زادنى ذلك ظمأ، وهذا حكم من تداوى بدائه" فهذه فكرة تقوم على حقيقة نفسيه مؤداها : أن بعض الأشخاص - صغاراً كانوا أم كبارا - قد يقعون تحت سطوة المحظور نتيجة حرمانهم من أشياء . تشتهيها نفوسهم ، وتتعلق بها ، وتظل الثورة تؤج فى صدورهم كلما حركتها شوة الحصول على هذا المحظور، لايهدأ لهم بال إلا باجتراحه بعد معاناة نفسية بين التقدم والإحجام، كآدم وحواء : لم يهدأ لهما فكر، حتى أكلا من الشجرة التى كان الله سبحانه نهاهما عنها بقوله :

"ويآآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولاتقربا هذه الشجرة، فتكونا من الظالمين"(١).

وكهذا الطفل الذى تنهاه أمه عن الإغارة على طبق الحلوى المحفوظ فى الخزانة إلا بإذنها، لكنه ينتهز فرصة انشغالها، فيغافلها، وهو يتلصص ليرتكب فعلته .

بعد ذلك تفىء النفس إلى رشدها وتتحرر من هذا الصراع أو تقع فريسة له لأنها تستمرئه وتستعذبه ، فينقلب هذا الاستمراء أو - بمعنى أدق - الحرمان إلى ظمأ كلما ارتوى لايقنع، بل ازداد تعلقاً، والتهبت الشهوة تسعراً، فهو يطفى غلته ليظمأ، ويظمأ ليطفىء الغلة ، فهو واقع بين شقى الرحا فى الحالين، ولعل ابن حزم نظر فى هذا إلى قول مجنون ليلى :

---

(١) الأعراف آية / ١٩ .

تداويت من ليلى بليلى وحبها   كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

أو نظر إلى قول أبى نواس :

دع عنك لومى ، فإن اللوم إغراء   وداونى بالتى كانت هى الداء

وهذا دليل على أنه قد تركزت جميع النساء فى نظره فى هذه الحبيبة لايرى غيرها، ولايود أن يفارقها ولايشبع من متعها .

٢ - البعد الصوفى : ومثل هذا الحب الذى يفنى فيه المحب يأخذ غالباً سمة الحب الروحى، لاسمة الحب المادى الذى يبحث عن متع الجسد، وهذا مانتعته : بالحب الصوفى ، أو الذى عانى تجربة الفناء ، حتى لو لجأ المتصوفُ إلى الرمز سبيلاً لكلامه، وهو مالا نجده عند أديبنا .

فابن حزم قد عشق الجمال المادى المحسوس، ولكنه لم يتخذه طريقاً للوصول إلى الجمال الإلهى .. والحق كما يصوره شعراء الصوفية، هو الجمال الأزلى المطلق، المعشوق على الحقيقة فى كل جميل وقد تجلى فى جميع صور الجمال لكى يعشق لأن طبيعته الأزلية قد اقتضت ذلك، بل إن مايسمى بالحب الإنسانى ليس فى الحقيقة إلا حباً إلهياً، وبرزخاً إليه .

٣ - البعد الوجدانى : إن ابن حزم قد بلغت به حدة الغرام درجة جعلته يتمنى أن يشق قلبه، ويضع فيه الحبيب، ويطبق صدره عليه إلى يوم القيامة ...

وددت بأن القلب شق بمدية   وأدخلت فيه، ثم أطبق فى صدرى

فأصبحتِ فيه لاتحلين غيره   إلى منقضى يوم القيامة والحشر

تعيشين فيه ماحييتُ، فإن أمتْ   سكنتِ شغاف القلب فى ظلمة القبر

وبرغم حدة العاطفة وسكرة الحب فإن الصورة الشعرية رديئة، ولن يرضى الحبيب أن يحبس طول حياته فى قلب محبه، فهو سجن أبدى مظلم.[1]

---

(١) راجع الحب ومذاهبه النفسية والجمالية ص ٧٠ - ٧٤ .

وإذا كان ابن حزم قد أخفق فى معظم صوره الشعريه، التى لاتعد طرازاً شعرياً يحتذى فى تصوير الحب أو التعبير عنه فإن مما يحمد له أسلوبه النثرى، الذى بلغ به أعلى درجات الجودة حيث سهولة اللفظ ، ودقة المنهج ، وترابطه، وبعد غوصه وتحليلاته النفسية واعترافاته العاطفية، والفهم الجيّد لأبعاد ماتناوله، وربما تعلقت فكرة بموضوعين فيذكرها فيهما بتفصيل فى الأول وإجمال فى الآخر، ليقوم كلاهما بذاته، لهذا غلب عليه الإطناب والتكرار، إلا أنه لايجلب مللاً ، ولايذهب بجمال التعبر؛ لهذا جاءت معانيه واضحة لاإغلاق فيها ولاإبهام .

والخلاصة : أن **حقيقة الحب** فى الطوق : قامت على فكرة تأملية ومعاناة شخصية بين الرجل والمرأة تبلغ تمامها بتمام لقائهما جسدياً . والحب يزيد وينقص، يقوى ويفتر، وربما إنقلب كراهية تأثراً بما يحيط الطرفين من ظروف وملابسات.!

إلا أن غاية البراعة فى بيان ابن حزم : أنه يحدثك أحياناً عن أشياء واضحة تحسّها لأول مرّة، تأخذ عليك مجامع إحساسك، وتلك رسالة الفن الأدبى .!

كما يحمد له : كثرة الاستشهاد بالقرآن والحديث النبوى، يعالج بهما أمراضاً بشرية كالغدر والكذب والفجور .. بل أوقف باباً على "قبح المعصية" وآخر على "فضل العفة" وأقام هذا على أساس من الإسلام ، وتلك رسالة الفقيه الداعية .!

❊ ❊ ❊ ❊

الفصل الثانى

الحـــب
بين التبعية والموسوعية

(عرض وتحليل)

تمهيــــد :

تقاطرت الدراسات الموسوعية التى عرضت للحب عبر مساحة زمنية شاسعة منذ القرن الثانى الهجرى دون توقف بحيث تمثل دائرة معارف عن الحب ومايتعلق به، وقد أكدت هذه الكثرة - عبر القرون - أن الحب ظاهرة كل العصور .

والجدير بالذكر أن بعض أصحاب تلك الموسوعات التى تضمنت فصلاً أو أكثر عن الحب يسبق - زمنياً - أصحاب الدراسات المتخصصة، فابن قتيبة - مثلاً - سابق على ابن داود، والجاحظ سابق عليهما معاً، وبينهما اقتباسات، قد لاتضيف جديداً ذا بال بالنسبة للدراسات المتخصصة إلا أنها عرضت للحب على أنه لون من ألون العلاقات الاجتماعية والإنسانية، أو على أنه لون من ألوان التعبير عن الذوق العام فى أمور تتعلق بتلك العاطفة الإنسانية .

وطبعى أن يكون لكل فقيه دافعه الخاص لتأليف كتابه، وفرق بين من يُسمى كتابه "طوق الحمامة" ومن يسميه - فى الغرض ذاته - "ذى الهوى" ففى الأولى : شاعرية وحلاوة فى السمع والنفس . وفى الأخرى : نزعة استنكار ورغبة فى التنكير. ومنهم من تناول الحب بشىء مباشر، ومنهم من حام حوله ومن توغل فى محاذيره وهو يستعيذ بالله من سوء العاقبة ...

- ١ -

فابن قتيبة (٢٧٦هـ)[١] فى كتابـه الموسوعى "عيون الأخبار" يخصص الجزء العاشر منه عن "النسـاء" وحديثه يتجاوز بالطبع (موضوع الحب) شـأن أصحـاب

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفى، ولد بها، وإنما سمى الدينورى لأنه كان قاضى الدينور، فهو من أعلام الإسلام، وإمام حجة من أئمة العلم، وكان لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة فإنه خطيب أهل السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة .

ومن أهم كتبه الإسلامية : مختلف الحديث - إعراب القرآن - كتاب القراءات - التفقيه - جامع الفقه - الميسر والقداح - الأشر به - الرد على المشبه - آداب العشرة - غريب القرآن - مشكل القرآن - مشكل الحديث (راجع مقدمة الشعر والشعراء جـ١/ ٤٨ ومابعدها ط دار المعارف بمصر ١٩٦٦) .

الموسوعات، فهو يبدأ بالأحاديث الشريفة التى تحث على العفة واختيار الزوجة الصالحة، ويروى كثيراً من الأقوال حول أخلاق النساء، ومايستحب من صفاتهن العضوية والنفسية، ونجد له بعض الأقوال التى تدل على رؤية نافذة مثل : "إياكم والمذكرة فإنها لاتنجب" والمراد المرأة التى تتشبه بالذكور ومثل : "بنات العم أصبر، والغرائب أنجب، وماضرب رؤوس الأبطال كابن أعجمية" وغير ذلك مما يقره الواقع والعلم الحديث .

وتحت عنوان "الأكفاء من الرجال" يبدأ بالحديث : "إذا جاءكم من ترضون خَلْقه وخُلقه فزوّجوه إنكم إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير"[1] ثم يذكر أمثلة عديدة من أقوال الصحابة وكذلك من الأشعار والأخبار التى تؤكد حرص العربى والعربية على الكفاءة فى الزواج والإحساس بالمهانة والمعرّة إذا مااضطر إلى النزول عن مستوى قبيلته لأمر ما، فضلاً عن مجاوزة الدم العربى إلى سلالة أجنبية[2] .

ويشير إلى المقاييس التى كانت تبنى عليها المرأة اختيارها إذا تساوى الفضل وكرم الأصل فى أكثر من رجل فيروى قصة أربعة من فضلاء الصحابة وقد تقدموا - واحداً بعد الآخر - لخطبة أم أبان بنت عتبة بن ربيعة، بعد أن مات عنها يزيد بن أبى سفيان، وقد خطبها ابن الخطاب ثم الزبير ثم على بن أبى طالب ثم طلحه فأجابت (طلحة) - دون السابقين - فتزوجها فدخل عليها على بن أبى طالب فقال لها : "رددت من رددت منا، وتزوجت ابن بنت الحضرمى" ، ثم قال : "أما إنك تزوجت أجملنا مرآة وأجودنا كفا وأكثرنا خيراً على أهله!" فكأنه بذلك حدد الأسباب التى فضلت بها هذه المرأة رجلاً على آخر ينازعه منزلته .

---

(١) عيون الأخبار جـ١٠ / ١٠ والحديث رواه الترمذى .

(٢) عيون الأخبار جـ ١٦/١٠ .

أما الصفات الحسية فإنها تدور حول المرأة أكثر من دورانها حول الرجل، ولم يهملوا الصفات النفسية بل أخذت الصدارة فى كلام العقلاء والمجربين. [١]

ويمضى ابن قتيبة متأثراً بالجاحظ، فيعرض لسياسة النساء، ومعاشرتهن، ومساوئهن، والقيان، والغناء، والنظرة والقبلة .. والفرق بينه وبين الجاحظ : أن الجاحظ له رأى واضح فى كثير من القضايا، كإباحة النظرة والاحتجاج لذلك . أما ابن قتيبة فقد اكتفى بتجميع الأخبار، وترك لقارئه أن يستشف منها مايريد . وقد ختم الكتاب بأحاديث عن العشاق غير الشعراء ، وهى تقوم على مادة قصصية، كقصة عبد الرحمن القس وسلامة المغنية . (وقد سبق ذكرها) ومن أقواله فيها غير ماتقدم: [٢] .

ألـم ترها لايُبعد اللــه دارهـا	إذا مَرحتْ فى صوتها كيف تصنعُ
تمـد نظـام القــول ثـم تــردّه	إلــى صلصــل فى حلقها فترجّــعُ

- ٢ -

ويعقد الراغب الأصبهانى [٣] (٥٠٢هـ) باباً "فى الغزل ومايتعلق به" فى كتابه الموسوعى " فى محاضرات الأدباء" فيعرض لماهية العشق، ونجد صدىً للأسطورة اليونانية - السابق ذكرها - والتى تشير إلى أن كل واحد من الجنس البشرى نصف ناقص لواحد كل . وغاية كل نصف البحث عن نصفه الآخر ..!

ويضع الأصبهانى عنوناً جديداً (سبق به ابن الجوزى) وهو : "ماجاء فى أوصاف الهوى وأحوال العشاق" فتناول الهوى وبحث فى أحوال فروعه، وأنواعه. أما الدراسات السابقة عليه فكانت تتجنب كلمة "الهوى" وتفضل فى مكانها "المحبة" فـإذا

---

(١) عيون الأخبار جـ ١٠ / ٥٨ والحب فى التراث العربى ص ٢٤٣ بتصرف .

(٢) عيون الأخبار جـ١٠ / ١٣٥ .

(٣) هو ابن مليكه من فقهاء التابعين وقضاة المسلمين كان يلى قضاء الطائف . لابن الزبير (أدب الفقهاء ص ٩٠) .

أرادت أن تجعل من المحبة شعوراً إنسانياً مقروناً أو دافعاً لبعض الشهوات وضعت له إسم "العشق" وعلى هذا يمكن أن نقرر : "أنه أول من استعمل كلمة الهوى فى هذا المجال بالمعنى العصرى الذى نستعملها له اليوم، وهو المرادف للحب أو الحب الشديد" (١) .

ونلحظ تأثر الأصبهانى بابن داود كثيراً، فهو يتطرق إلى "ذكر من عشق من الكبار" فيذكر عشق داود عليه السلام لامرأة أوريا، وماكان من تحاكم بينهما، أشار إليه القرآن الكريم من قصة (التسع والتسعين نعجة) .

وقد عرج الأصبهانى إلى قصة يوسف - عليه السلام - والتى تعدّ القاسم المشترك لكل مايكتب عن الحب أو المرأة أو العفة . ويستمر فى طريق ابن داود حين يرى أن : "التذلل للحبيب من شيم الأريب" وهذه العبارة بنصها عنوان الفصل السادس من النصف الأول من الزهرة، وإن وضع الأصبهانى كلمة "الأريب" بدلاً من "الأديب" ولعله فارق بين شعورين تجاه الظاهرة الواحدة .

كما تأثر بابن داود فى نظرته (لكمال الحب العفيف) والوحدة فيه، فيروى قول رجل لامرأة : قد أخذت قلبى فلست استحسن سواك ! فقالت إن لى أختاً هى أحسن منى ها هى ذى خلفى ! فالتفت الرجل، فقالت : ياكذاب، تدّعى هوانا وفيك فضل لسوانا" ومثل هذه الأخبار أو القصص الموجزة مصنوعة لتأكيد مفهوم الحب، وأنه حالة من امتلاء الإحساس والشعور بشخص واحد لايصح أن يشاركه أحد غيره؛ ولهذا يوصف مثل من وقع فى هذا الخطأ بأنه غير محب، وليس بالغباء.. (٢)

كما نلحظ تأثره بابن داود فى رصد علامات الحب : فهناك من هيّجه الحمام بتغريده، أو الريح بهبوبه أو تذكر بالنار الموقدة، أو استطاب التوديع طمعاً فى لقاء

---

(١) الحب فى التراث العربى ص ٢٥١ .

(٢) راجع الحب فى التراث العربى ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

الحبيب، أو أعرض عن الحبيب خشية الرقيب .. كما يمضى إلى بعض المعانى الدقيقة التى سبق إليها ابن داود مثل : التضليل بإخفاء المحبوب عن الناس، والتكتم بإظهار الهوى فى غير المحبوب، وكتمان الهوى عن المحبوب .. وهو يعرض لأنواع العشق بقوله : "قال العلماء : الهوى أنواع أوله العلاقة وهو الشىء يحدثه النظر والسمع فيخطر بالبال، ثم ينمو فيصير محبة والحب اسم مشترك يجمع ضروباً من ميل النفس كحب الولد والمال، ثم الهوى، ثم المودة، ثم الصبابة، ثم العشق، ثم الوله والهيام، والتتيم وهو أرفع درجات الحب لأنه التعبد" (١)

وللراغب الأصبهانى نفسه شعر رقيق فى معنى قول شوقى : (الحياة الحب والحب الحياة) يقول :

من عاش فى الدنيا بغيـر حبيب	فحياتـه فيها حيـاة غريـب
ماتنظر العينـان أحسن منظـراً	من طالـب إلفاً ومـن مطلـوب
ماكـان فـى حـور الجنـان لآدم	لـو لم تكن حواءُ من مرغـوب
قد كان فى الفردوس يشكو وحشة	فيهـا ولم يأنـس بغير حبيـب!

حقاً : فالخلى من نوازع الحب كالغريب، لايجد رفيقاً ولاصديقاً يأنس به ويشاطره أفراحه وأتراحه، ولذلك كان منظر الحبيبين أحسن منظر تقع عليه العين .!

والأعجب أن الأصبهانى يفرغ الجنة من جميع الرغائب - على كثرة مافيها - إذا لم تكن فيها حواء تبادل آدم حباً بحب، حتى الحور العين لاتملأ ذلك الفراغ . حقاً : هو معنى بديع لم يسبق إليه ، وفيه طمأنينة وسكينة لعقائلنا، ورفيقاتنا من الجنس اللطيف اللائى يتبرّمن كثيراً بالحور العين، ويستوحشن من مشاركتهن لهن فى الجنة! فهـذا القاضـى الفقيه : يبين أنه لاجمـال حـور العيـن، ولاشىء مما فى الجنة مـن المغريات يصرف الأحباب عن أحبابهم، وبخاصـة الرجـل عن شريكته فى الحياة الأولى

(١) راجع محاضرات الأدباء للأصبهانى جـ٢ الحد الثالث عشر ص ٣٩ - ١٣٣ .

لأن مابينهما أسمى وأعلى من كل ذلك ؛ إنه رباط روحى وامتزاج قلبىّ بدأ منذ كانا منجدلين فى الطين، ومازال ينمو ويقوى ويجذب هذا نحو هذه حتى اندمج كل منهما فى الآخر، وأصبحا ذاتاً واحدةً تجرّ وراءها من الذكريات بقدر ما اشتبكت به حياتهما الماضية من العلاقات. (١)

- ٣ -

أما ابن السراج القارىء البغدادى (٥٠٠ هـ) فكتابه "مصارع العشاق" يعد أهم وأضخم مصدر لقصص العشاق العذريين الذين صرعهم الحب على أنواعهم، ويقع الكتاب فى اثنين وعشرين جزءاً - فى أصل وضعه - قدم مؤلفه لكل جزء بمقطوعة غزلية من نظمه ثم حشد الأجزاء بروايات وأخبار وأشعار، يوردها دون تحليل أو نقد أو موازنة. وربما وجدنا منها مالايقبله العقل كبعض القصص على لسان الحيوان أو مصارع عشاق الجان، أو هاتف الجبل الذى دلّ ببيتين أنشدهما على المكان الذى مات فيه عاشقان اختفى أثرهما، وغير ذلك من حوادث الموت السريع على أثر شهقة شهقها عاشق أو عاشقة .

وروايات الكتاب خليط من جاهلى وإسلامى وأموى وعباسى وكلها نزيه يسوده العفاف وخوف الله وعذاب الآخرة. حتى إن الذى يحتوى شيئاً من روح التراخى الأخلاقى ينتهى بالتوبة إلى الله واستغفاره تعالى(٢) . وقد حاول السراج فى الجانب الأكبر من قصصه أن يؤكد خلود العاشقين وأن يبرز ملامح النساك منهم والذين يخافون الله وأن يربط بين (العشق والتقى والعفة) وتركنا نفهم أن الدين يُسهم بقدر فى توجيه الحب وجهة عفيفه، فعشاقه يؤكدون من خلال تعاملهم على الوازع الدينى وأنه يحول بينهم وبين ارتكاب المعاصى أو يحملهم على إخفاء عواطفهم فصاروا أمثلة للتضحية والوفاء، وهو فى كل الحالات رجل إخبارى لايحلل ولايدرس

---

(١) راجع أدب الفقهاء عبد الله كنون ص٨٩ - ٩٠ .

(٢) راجع مصارع العشاق جـ ١ / ٥ ط بيروت .

ولايدفع لك بالنتائج، ومع ذلك فقصصه يهدى إلى تفسير لظاهرة الحب العذرى فى بغداد ... ويعكس – دون شك – ذوق الذين أقبلوا على هذه القصص . وابن السراج فقيه خائف يتوجس شراً من وراء رواياته فيوردها مسندة كأنما يريد أن ينفض يديه من مسئوليتها ويوصد الباب دون مشاعره.[١]

وفى عصر ابن السراج كان للغلمان المرد وقع فى نفوس كثير ممن عشقوا جمالهم، ويعرض ابن السراج لأخبار هؤلاء الغلمان كثيراً[٢] على أنها ظاهرة واقعية .

ولابن الساج قصائد غزلية كثيرة – فى كتابه – وكثيراً مايستفتح بالغزل أغراضاً أخرى كالمديح على عادة القدامى[٣].

وتأخذ "العفة والوفاء" حَيّزا كبيراً فى مصارع العشاق من خلال قصص الحب العذرى فيروى مثلاً عن بنى عذرة (جـ١/٤٢) ثم يحكى قصة من أنشد :

نقّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى ‏ ‏ ‏ ‏ ماالحبُّ إلا للحبيب الأول

ثم سقط مغشياً عليه (جـ١ / ٤٣) .

ويروى قصة وفاء ابنة عم "النعمان بن بشير" لزوجها الذى مات فى الغزو، فرثته بأبيات، فلما فرغت من الشعر شهقت شهقة فماتت ! (جـ١ / ٤٩ – ٥٠) ثم يذكر الحديث المروى عن ابن عباس : "من عشق فعف فمات دخل الجنة" ويعلق عليه بأبيات لنفسه منها : (جـ١ / ١٠٤) .

ولقد خلوت بها وأبـ ‏ ‏ ‏ ‏ ـعدتُ العذارى والعجائز
ليلاً، فكان عفافنا ‏ ‏ ‏ ‏ مابيننا والصون حاجز
حاشا صحيح الحب يو ‏ ‏ ‏ ‏ ماً أن يقامَ مقام ماعز

---

(١) راجع دراسات عن ابن حزم د / مكى ص ٣٣١ .
(٢) راجع على سبيل المثال ص ٣٢ ، ٨٤ .
(٣) مصارع العشاق جـ١ / ٣٤ ، ٦٥ .

يريد ماعز بن مالك الذى أقرّ على نفسه بالزنا ورجمه النبى (ص) .

ويحكى قصة "سيد العشاق" عن أبى عمر بن حيويه مرفوعاً إلى مصعب بن عبد الله بن الزبير قال : عشق رجل من ولد سعيد بن العاصى جارية مغنية .. وهو لايُعلمها بذلك، ثم إنه ضجر فقال : واالله لأبوحَنَّ لها فأتاها عشية فلما خرجت إليه، قال لها : بأبى أنتِ أتغنين :

أتُجْزُون بالـود المضاعَفِ مثلَــه فإن الكريـم من جَزَى الودَّ بالـودِ

... وبلغ عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، فابتاعها له وأهداها إليه فمكثت عنده سنه ثم ماتت فبقى مولاها شهراً أو أقل ثم مات كمداً عليها فقال أبو السائب المخزومى : حمزة سيد الشهداء، وهذا سيد العشاق، فامضوا بنا حتى ننحر على قبره سبعين نحرة كما كبّر النبى (ص) على قبر حمزة - رضى الله عنه - سبعين تكبيرة. قال : وبلغ أبا حازم الخبر، فقال : مامن محبّ فى الله يبلغ هذا إلا ولى"[١] .

ويروى قصة أبيات رواها كثير على قبر عزة، وقصة من مات على قبر حبيبته[٢] كما يروى عن الأمم السابقة بعض الإسرائيليات التى تحث على ثواب "العفة"[٣] على أن قصة "يوسف" - عليه السلام - تُعدُّ (القاسم المشترك) لكل من تناول العفة وابن السراج يمزجها ببعض الإسرائيليات التى تؤكد مغزها وهدفها العام[٤].

---

(١) مصارع العشاق جـ١ / ١٠٨ .

(٢) مصارع العشاق ج١ ص ١٢٦ ، ١٢٨ .

(٣) نفسه ص ١٣٩ .

(٤) المرجع نفسه ١٦٥ .

وفى الكتاب أخبار تؤكد أن الحب ظاهرة تتعدى الحياة البشرية إلى مافى الكون الفسيح من ذلك مارواه عن يحيى الصنعانى من خبر شجرتين التفتا على قبرين متلاصقين قد خرج من كلا القبرين ساق شجرة حتى إذا صارا على قامة التفا، أما القبران فهما قبر عروة وعفراء، وحين يسوق السراج هذا الخبر يتبعه بتعليق الناس على هذا المشهد الغريب : "تآلفا فى الحياة وفى الممات" ويكرر رواية الخبر ويختلف التعليق بما هو أكثر غرابة، إذ يسأل راوى الخبر محدثه : أى ضرب هو من الشجر ؟ فيقول المحدث : لاأدرى، ولقد سألت أهل القرية عنه فقالوا :

"لانعرف هذا الشجر ببلادنا" (١) .

وهو أمر منطقى فذاك الشجر الغريب يناسب ذلك الخبر العجيب ! وياترى هل نبتت تلك الشجرة من قلب العاشق ؟ هل تحول العاشق نفسه إلى شجرة ؟ هل تجاوب الشجر مع أشواق البشر ؟ إنها إيحاءات ممكنة لصورة شجرتين ملتفتين قد خرجتا من قبرى عاشقين، وقد يكون مثل هذا الخبر مقدمة مقبولة تفسر قول القائل :

تكـــاد يدى تندى إذا مالمستهـا ... وينبتُ فى أطرافها الورق الخَضِـــر

وإذا كان قد تقرر فى الكتابات العربية حول عاطفة الحب أنه لايقع إلا بين متجانسين فإن هذا يغرى بتلمس التجانس فى عناصر الطبيعة المختلفة فإذا أمكن أن يظهر العشق على شجرة تمثل عروة وأخرى تمثل عفراء فلماذا لانتصور علاقة من هذا النوع بين الشجر لذاته .. وقد روى ابن الجوزى : خبر نخلة عاشقة من نخيل البصرة كانت غاية فى حسنها وطيب رُطبها، ثم فسدت حتى شيصت ، قال راوى الخبر : فدعا صاحبها شيخاً قديماً يعرف النخل، فنظر إليها وإلى ماحولها من النخل، فقال : هذه عاشقة لهذا الفحل الذى بالقرب منها فلقحت منه فعادت إلى أحسن ماكانت. (٢)

---

(١) مصارع العشاق جـ١ ص٢١٢ ، ٢٦٤ ، ٣١٧ .

(٢) راجع الحب فى التراث ص ٢٤ وذم الهوى ص ٢٩٩ .

سمة الكتاب وهدفه :

ولعل أهم مايميز "مصارع العشاق" هو : هذا الطابع القصصى الخرافىّ الذى ينظر إلى الحب كعاطفة غامضة غريبة الأطوار مستعصية على الفهم مجرد بلاد من الله يصيب به أصحاب القلوب الشفيقة أو العقول المصابة، هذا الطابع الانحرافى لاتجده فيما كتبه الرائدان : ابن داود وابن حزم، ونسبياً لاتجده عند ابن الجوزى، ماعدا ذلك نجد الميل إلى الإغراب والاهتمام بالعجائب الغامضة، لقد كان نشاط الرائدين فقهياً، فجاءت دراساتهم إنسانية تنظر إلى الحب كعاطفة كريمة هى جزء من صحة النفس والبدن والذوق والخلق والإيمان، بينما مزج ابن السراج وآخرون ثقافتهم بالنجوم أو الكهان أو قصص الحمقى والجان، فكان طبيعياً أن تظهر هذه الطوابع عندهم فى مفهومهم للحب، وتحليلهم لانفعالاته - إن كان ثمة تحليل [١] .

والروح الدينية والنزعة الصوفية مسيطران على كثير من قصصه وقد عقد بابا فى : "مصارع محبى الله عز وجل" عرض فيه للحب الإلهى ومصارع عشاق الجان والحور العين، وصنّف الناس ثلاثة أصناف. "صنف منهم مضروب بسوط المحبة مقتول بسيف الشوق مضطجع على بابه ينتظر الكرامة، وصنف منهم مضروب بسوط التوبة مقتول بسيف الندامة مضطجع على بابه ينتظر العفو، وصنف منهم مضروب بسوط الغفلة مقتول بسيف الشهوة مضطجع على بابه ينتظر العقوبة"[٢] كما عرض لنَوْح "داود" وبلاء "أيوب" عليهما السلام[٣] ولحب رابعة العدوية، وكررها فى أكثر من موضع[٤] وتكرار القصة سمة أخرى من سمات الكتاب.

---

(١) راجع الحب فى التراث العربى ص ٧٨ .

(٢) مصارع العشاق جـ ١ / ٢٧١ .

(٣) المرجع نفسه ص٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٤) المرجع نفسه ص ٢٠٧ ، ٢٧٥ .

ويمكن أن نقرر الهدف الأعظم الذى سعى إليه ابن السراج من كتابه وهو : بلوغ عاطفة الحب منتهاها بالموت حباً أو ماهو فى الحكم الموت من الجنون أو الإغماء أو الانتحار، فهى قصص من نوع خاص تحمل بعض علامات الحب من زاوية مأسوية تؤكد الوفاء والعفة والحرمان حتى الموت ..!

- ٤ -

أما الغزالى (٥٠٥ هـ) فى كتابه "إحياء علوم الدين" فقد تناول شهوات الإنسان، فذكر أن أقواها : شهوة النساء، ولعله أفاد ذلك من الترتيب القرآن : "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين .. الآية . (١)

وقد قسمّ شهوة الإنسان ثلاثة أحوال : إفراط ، وتفريط، واعتدال .

فالإفراط : مايقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء، وهو مذموم . **والتفريط** : يكون بالعُنة أو الضعف، وهو مذموم أيضاً . **وإنما المحمود** : أن تكون معتدلة، ومطيعة للعقل والشرع فى انقباضها وانبساطها، ومن هذا المنطلق بسط القول فى أمور التزويج، والعزبة، ومخالفة الشهوة إلى العفة فى إطار القرآن والسنة. (٢)

والغزالى لايتصور محبةً إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لايحب الإنسان إلا مايعرفه، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد، بل هو من خاصية الحى المدرك .. ومعنى كونه محبوباً أن فى الطبع ميلاً إليه، ومعنى كونه مبغوضاً أن فى الطبع نفرة عنه. فالحب : عبارة عن ميل الطبع إلى الشىء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقاً. (٣) أى أنه يربط بين الحب واللذة .

(١، ٢) إحياء علوم الدين للغزالى جـ٣ / ١٠٠ وسورة آل عمران آية / ١٤ .

(٣) إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى جـ٤ / ٢٩٦ .

ونظرية الغزالى هى بعينها نظرية علم النفس الحديث وليد عصر النهضة وعلم النفس يجعل مبعث الشعور المعرفة والإدراك، وان هذا الإدراك يقوم فى جانب كبير منه على الميل الغريزى، وهو ميل طبيعى فى الإنسان يدفعه إلى القيام بسلوك خاص لتحقيق غرض من الأغراض[١] .

ولذة الإنسان ترتقى معه منذ صغره : فالصبى يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده ألذّ من سائر الأشياء، تظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب، فيستحقر معها لذة اللعب، ثم تظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء، فيترك بها جميع ماقبلها فى الوصول إليها، ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر، وهى آخر لذات الدنيا وأعلاها كما قال تعالى : "اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر .. الآية"[٢] ثم تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى.. فيستحقر معها جميع ماقبلها . فكل متأخر أقوى وهذا هو الأخير"[٣] .

لهذا يمكن أن نقرر : "أن هذه النظرة الجمالية ولدت مع الرجل العادى، ثم أخذها الشاعر، ثم استوحاها النقد الأدبى والفكر الإسلامى، ومن ثم تطورت على أيدى الفقهاء والفلاسفة، فبعد أن كانت تعتمد على المقاييس الحسيّة غدت تعتمد على المقاييس الروحية والفكرية والنفسية"[٤] فالغزالى يطور نظريته - المذكورة - ويعمقها فيعقد موازنة بين النظريتين : الحسيّة، والتى تعتمد على القلب والعقل، فيقول : والقلب أشد إدراكا من العين، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لامحالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة

---

(١) الحب ومذاهبه النفسية والجمالية د . الصادق عفيفى ص١١٥ .

(٢.٣) إحياء علوم الدين جـ٤ / ٣١١ وسورة الحديد آية / ٢٠ .

(٤) الحب ومذاهبه ص ١١٤ .

الإلهية التى تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى"[١] .

هكذا بتدرج الغزالى ليصل إلى أسمى أنواع الحب وهو حب الله عز وجل وإلى أقوى أنواع الملذات وآخرها وهى معرفة الله عز وجل، وهو حين يعرض لهذا يقرر أن حب الله تعالى فرض بالإجماع مستدلاً بالأحاديث والآيات من ذلك قوله (ص) : "لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما" وقوله تعالى : "قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره"[٢] جـ٤ / ٢٩٤ والحديث متفق عليه والآية / ٢٤ سورة التوبة. كما يقرر الغزالى : أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست مجازاً، أما محبة الله سبحانه للعبد إنما تعنى : تقريب العبد منه سبحانه بدفع الشواغل والمعاصى عنه، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه.

واستدلّ الغزالى بقوله تعالى : "والذين آمنوا أشد حباً لله[٣] وبقوله تعالى : "يحبهم ويحبونه"[٤] على إثبات الحب والتفاوت فيه. وهو يورد أقوال بعض المحبين لله، لاتشغلهم عنه زينة الدنيا فيذكر قول "رابعة" عن حب الله : "ماعبدته خوفاً من ناره ولاحباً لجنته، فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه ، وقولها: [٥].

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ / ٢٩٧ .

(٢) المرجع نفسه ص٢٩٤ والحديث متفق عليه ، والآية / ٢٤ سورة التوبة .

(٣) البقرة آية / ١٦٥ .

(٤) المائدة آية / ٥٤ .

(٥) إحياء علوم الدين جـ٤ / ٣١٠ ، ٣١١ .

أحبك حبين حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى	فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له	فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولاذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولعل المراد بحب الهوى : حب الإحسان والإنعام عليها بحظوظ الدنيا العاجلة، أما حبها لما هو أهل له : فهو الحب لجلاله، واللذة لمطالعة جمال الربوبية وهى درجة المعرفة وأجل اللذات وأعلاها .

والخلاصة : أن الغزالى ارتقى بالحب البشرى إلى الحب الإلهى، فعالجه من زاوية تغلب عليها المسحة الدينية الصوفية، والتحليل الخلقى، فحديثه عن الحب : حديث فى العقيدة ، وإرتقاء إلى الحب الحقيقى الأسمى .

- ٥ -

أما ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) فى كتابه "ذم الهوى" فقد كان من أبرز الفقهاء الذين عالجوا "قضية الحب" فى ضوء الشريعة الإسلامية، وتبدو صورته - من خلال ذم الهوى - جادة حيث قدم له بمقدمة طويلة عن أهمية العقل والاحتكام إليه، والكتاب على ضخامته - إذ بلغ خمسين بابا - جاد معظمه فى التحذير والتذكير ، وذم الشهوات والحض على مجاهدة النفس، ومدح الصبر والحث عليه، والتحذير من الفتن والعواطف المنحرفة، بينما اهتم بقصص "الحب العذرى" وعرض لبعض القصص التى ترى الحب انحرافاً، لهذا كله نراه يرغّب فى الزواج ويحث عليه رغبة فى العفاف .

وقد عرض لمعنى "الهوى" وقسمه قسمين : مذموم ومحمود ، فقال : "إن الهوى ميل الطبع إلى مايلائمه، وهذا الميل خلق فى الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ماأكل وإلى المشرب ماشرب وإلى المنكح مانكح .. فالهوى مستجلب له مايفيده .. فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذلك، وهو مايزيد

على جلب المصالح .. ولما كان الغالب من موافق الهوى أنه لايقف منه على حد المنتفع أطلق ذم الهوى والشهوات لعموم غلبة الضرر. قال ابن عباس : "ماذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمّه" [١] .

ويروى ابن الجوزى بعض أقوال الصالحين فى ذم الهوى، كقول أبى على الدقاق : "من ملك شهوته فى حال شبيبته صيّره الله ملكاً فى حال كهولته، كيوسف - عليه السلام - إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين" [٢] .

وقال ابن المقفع : الهوى هو ان سرقت نونه، ونظمه شاعر فقال :

نون الهوان من الهوى مسروقة ... فإذا هَوِيْتَ فقد لقيت هوانا [٣]

كما قسمّ ابن الجوزى "العشق" قسمين : محمود ومذموم : **أما المحمود** : فهو المحبة والود والميل إلى الأشياء المستحسنة، فلا يذم ولايعدم ذلك إلا لحبيس من الأشخاص **أما المذموم** : فهو مايميل عن حد الميل والمحبة فيملك العقل ويصرف صاحبه على غير مقتضى الحكمة، ويروى للعشق المحمود قول الشعبى : [٤]

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ماالهوى ... فأنت وعيرٌ بالفلاة سواء !

وقول أبى الفرج الوأواء : [٥]

سبل الهوى وعْر ... حلو الهوى مُرُّ

برد الهوى حر ... يوم الهوى دهر !

سر الهوى جهر !

---

(١) ذم الهوى لأبى الفرج بن الجوزى ص ١٨ ط بيروت تحقيق أحمد عطا .

(٢) المرجع نفسه ص ٢١ ، ٣٢ ، والأية / ٩٠ سورة يوسف .

(٣) المرجع نفسه ص٣٣ .

(٤) المرجع نفسه ص ٢٤١ .

(٥) المرجع نفسه ص٢٥٢ .

كما يروى لشيخه أبى عبد الله البارع أبياتاً منها :[١]

أهاب بقلبك داعى النّوى — غداة الوداع ألا لافرارا

وقد مات قيس به هائما — فما أدركت عامرٌ منه ثارا

ومات بدائهما توبة — أحبوا كراماً وماتوا حرارا

وقد عالج ابن الجوزى قضية الحب بطريقة منهجية، حيث عرض لبعض القضايا العاطفية ، يطرح التساؤل ويجيب هو عنه :

"فإن قيل : إذا كان سبب العشق نوع من موافقة بين الشخصين فى الطباع فكيف يحب أحدهما صاحبه والآخر لايحبه ؟

فالجواب : أنه يتفق فى طبع المعشوق مايوافق طبع العاشق ، ولايتفق فى طبع العاشق مايلائم طبع المعشوق، وإذا كان سبب العشق اتفاقاً فى الطباع بطل قول من قال : إن العشق لايكون إلا للأشياء المستحسنة .. فقد يكون الشىء حسناً عند شخص غير حسن عند آخر[٢] .

وقد أقر ابن الجوزى بمبدأ "المشاكلة" بين المحبين اتباعاً لابن داود إلا أنه توسع فيما رواه من حوار حول أسباب العشق تحت عنوان "ذكر كلام الإسلاميين فى ذلك" وهذا يرينا كيف صار القول بالمشاكلة وجهاً إسلامياً مقبولاً لفكرة الروح المقسومة فى جسدين وهو قول تؤيده الدراسات السيكولوجية إلى حد بعيد[٣] .

وتختلط الأوراق فى يد ابن الجوزى على نحو فريد، يذكرنا بتلك التعليلات المتداخلة التى لجأ إليها ابن داود من قبل، بل تمتزج أسطورة الروح المقسومة بقول

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٥٥ .

(٢) ذم الهوى ص٢٣٥ .

(٣) راجع الحب فى التراث العربى ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

ابن حزم بالاتصال والانفصال بين النفوس .. ولعله قرأ اعتراض ابن حزم على صاحب الزهرة فتهرب من المواجهة وجمع بين القولين وترك لنا الخيار[١] فذكر رأى بعض الحكماء "أنه لايقع العشق إلا لمجانس وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل "واستدل بالحديث" الأرواح جنود مجندة، مما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف" قال : وقد كانت الأرواح موجودة قبل الأجسام فمال الجنس إلى الجنس، فلما افترقت الأجساد بقى فى كل نفس حب ماكان مقاربا لها ، فإذا شاهدتْ النفس من نفسٍ نوع موافقه مالت إليها.. فإن كان التشاكل فى كل المعانى كانت صداقه ومودة وإن كان فى معنى يتعلق بالصورة كان عشقاً وإنما يوجد الملل والإعراض فى بعض الناس لأن التجربة أبانت ارتفاع المجانسة والمناسبة" وأنشد فى ذلك شعراً[٢] .

ويعرض ابن الجوزى لبعض علامات الحب بادئاً - كما بدأ الرّواد - بالنظر الذى قد يعمق الحب أو يصرفه، والجديد أنه يتبع كل علامة بطريقة الشفاء منها وكيفية معالجتها ، فمثلاً يتبع النظر بهذا الخبر :

"حدثنا بعض أشياخ البصرة أن رجلاً وامرأة اختصما إلى أمير من أمراء العراق وكانت المرأة حسنة المنتقب قبيحة المسفر وكان لها لسان، فكأن العامل مال معها، فقال: يعمد أحدكم إلى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يسىء إليها ! فأهوى الرجل فألقى النقاب عن وجهها ، فقال العامل لها : عليك اللعنة، كلام مظلوم ووجه ظالم!!"

ولاتخفى صنعة ابن الجوزى فى عرض الخبر ! ثم يستطرد فيقول : "فإن كان تكرار النظر قد نقش صورة المحبوب فى القلب نقشاً متمكناً وعلامة ذلك امتلاء القلب بالحبيب، فكأنه يراه حالاً فى الصدر وكأنه يضمه إليه عند النوم ويحادثه فى الخلوة،

---

(١) راجع الحب فى التراث العربى ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) ذم الهوى ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

فاعلم أن سبب هذا الطمع فى نيل المطلوب وكفى بالطمع مرضاً، وقلّ أن يقع العشق إلا فى المطموع فيه .

فإن الإنسان لو رأى زوجة الملك فهويها لم يكد قلبه يتعلق بها لأجل اليأس من مثلها فأما من طمع فى شيء فإن الطمع يحمله على طلبه ويعذبه إن لم يدركه" (١).

ويمدنا ابن الجوزى بأدوية لمن استبد به العشق: (٢)

فالحازم إذا أصابه شيء من ذلك المرض وجب عليه أن يبادر إلى الطبيب قبل - أن يحل به التلف ومن التفريط القبيح الذى جرّ أصعب الجنايات على النفس محادثة النساء الأجانب والخلوة بهن، وقد كانت عادة لجماعة من العرب يرون أن ذلك ليس بعار ويثقون من أنفسهم بالامتناع من الزنا ويقنعون بالنظر والمحادثة، وتلك الأشياء تعمل فى الباطن، وهم فى غفلة عن ذلك إلى أن هلكوا، وهذا هو الذى جنى على مجنون ليلى وغيره .. وكان غلطهم من وجهين أحدهما :

مخالفة الشرع الذى نهى عن النظر والخلوة . والآخر : تعريض الطبع لما قد جبل على الميل إليه ، ثم معاناة كفه عن ذلك .

فالطبع يغلب، فإن غَلب وقعت المعاصى، وإن غُلب حصل التلف بمنع العطشان عن تناول الماء. ويروى قول بقراط قَصَمْتُ الأدواء بالعقاقير .. فأعيانى دواء الحب بعد تمكنه .. وقول البحترى :

ولقـد قـال طبيبـى	وطبيبـى ذو احتيـال
سقـم الحـب رخيـص	ودواء الحـب غالـى

(١) ذم الهوى ص ٤٣٩ - ٤٤١ .

(٢) المرجع نفسه / ٤٣٧ بتصرف .

وابن الجوزى يطرح تساؤلاً آخر ويجيب عنه :

فإن قيل : فإن وقع العشق بأول نظرة فأى لوم على الناظر ؟

فالجواب : إنه إذا كانت النظرة لمحة لم تكد توجب عشقاً إنما يوجبه جمود العين على المنظور بقدر ماتثبت فيه وذلك ممنوع منه ولو قدرنا وجوده باللمحة فأثر محبةً ، سهُل قمع ماحصل .

فإن قيل : فما علاج العشق إذا وقع بأول لمحة ؟

قيل : علاجه الإعراض عن النظر، فإن النظر مثل الحبة تُلقى فى الأرض فإذا لم يلتفت إليها يبست وإن سقيت نبتت فكذلك النظرة إذا ألحقت بمثلها ! .. فإن جرى تفريط، فالنظرة الثانية هى التى تخاف وتحذر، فلا ينبغى أن تحتقر هذه النظرة .(١)

فهو يرى أن غض البصر أنجع علاج وياحبذا لو اقترن بنية احتساب الأجر وقد سئل حكيم : ماسبب الذنب ؟ قال : الخطرة ، فإن تداركت الخطرة بالرجوع إلى الله ذهبت، وإن لم تفسل تولدت عنها الفكرة فإن تداركتها بالرجوع إلى الله بطلت وإلا فعند ذلك تخالط الوسوسة الفكرة، فتولد عنها الشهوة وكل ذلك باطن فى القلب لم يظهر على الجوارح، فإن استدركت الشهوة وإلا تولد منها الطلب وإلا تولد منه الفعل. وقد قيل : من راقب الله فى خطرات قلبه عصمه الله فى حركات جوارحه. كما قيل فى قوله تعالى : "وخلق الإنسان ضعيفا" إذا نظر إلى النساء لم يصبر(٢) .

كما يعرض ابن الجوزى للتحذير من فتنة النساء ويروى فى ذلك الأحاديث (ص١٣٦ - ١٣٧) .

---

(١) ذم الهوى ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٠ - ١٢١ .

إلا أننا نلمس صراعاً واضحاً بين شخصية ابن الجوزى الفقيه، وشخصيته الفنية فهو "الأديب الظريف المبدع المقبل على الحياة - كما نراه فى أيامنا - النشأة العلمية والوجاهة الاجتماعية .. يبدو شاباً إلى آخر يوم من حياته وقد عاش فوق الثمانين، وبالتأمل فى بعض عناوين فصول كتابه يتأكد هذا الصراع المذكور من مثل : إذا لم يستعمل القلب فيما خلق له تعطل - مخالفة الهوى أعظم من المشى على الماء - اعكسوا هذه الأنفس عكس الخيل باللجم - مداراة المعصية أسهل من معاناة التوبة - كيف تدخل شواهد الحق قلبا فيه أوصاف غيره من البشر ... فهى عناوين تؤكد الصراع بين ابن الجوزى **الفقيه** بكل ماللقب من التزامات، **والفنان** بكل مافيه من حرية التصوير والتعبير. وانظر إلى هذا الخبر الطريف وتأمل دلالته : إن ابن الجوزى تزوج امرأة اسمها "نسيمَ الصبا" فأقام معها مدة، ثم وقعت بينهما وحشة ففارقها فاشتد بها كُلفة وزاد غرامه وراسلها فأبت عليه وطال بينهما الأمر، وأنها حضرت مجلس وعظه يوماً فلاحت منه نظرة فرآها وقد استترت بجاريتين، فتنفس الصعداء وأنشد:

أيا جبلى نعمان باللـه خليـا سبيلَ الصبَّا يخلُصْ إلىَّ نسيمُهـا
أجدْ بردها أو تشفِ منى حرارةً على كبدٍ لم يَبْـقَ إلا صميمُهـا
فـإن الصَّبا ريح إذا ماتنسمـت على نفـس مهموم تجلت همومهـا

فاستحيت ثم ذهبت وقد داخلها الرقة له، فحكت لبعض النساء ذلك فمضين فأخبرنه فراسلها فأجابت فتزوج بها !

فصاحب "ذم الهوى" يقحم فى سياق وعظه - والمجلس وقور - أبياتاً بريئة الظاهر وهى غزل صريح موجه إلى زوجته السابقة التى تأثرت بالإخراج الدرامى للمشهد فلان قيادها بعد شماس ورقت بعد جفاء."[1]

---

(١) الحب فى التراث العربى ص٧٤ -٧٥ وتزيين الأسواق فى أخبار العشاق للأنطاكى ص١١١.

وهو إذ يقرر أن "مخالفة الهوى أعظم من المشى على الماء" يرى أن محاسبة النفس وتوبيخها دليل المجاهدة، ومن هذا المنطلق يروى قصص بعض النساك عاقبوا أنفسهم على الخاطرة أو النظرة العابرة، فهذا رجل من أتباع عيسى بن مريم خرج للاستقساء، يروى لعيسى أنه قلع عينه لأنه نظر بها إلى قدم امرأة، فيقول له المسيح: "ادع فأنت أحق بالدعاء منى فإنى معصوم بالوحى وأنت لم تعصم" (١).

والخلاصة أن ابن الجوزى عالج قضية (الحب) انطلاقاً من ذم الهوى المفرط، وطوّع قصصه الدينى لخدمة الدعوة الإسلامية وسمو العاطفة الإنسانية، وهو يهدف بوعظه إلى نهاية منطقية ألا وهى : أن الحماية لمن أراد العافية إنما تكون بالزواج والوصال من طريق شرعى .

-٦-

وعدنا ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) بكتابه "روضة المحبين" وقد تناول الحب من جميع جوانبه، حب الله والإخوان والنساء والألحان .. "فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غايتها واتصلت بداياتها بنهاياتها ..."

وابن القيم إمام من أئمة الدين ورائد من رواد التحرر الفكرى وداعية من أعظم دعاة الاجتهاد ونبذ التقليد الأعمى - كان يحث على تفهم روح الدين ، ويرى أن الفقه هو قانون الحياة وينبغى أن يتطور ليسايرها ، وقد عرض للجنس والحب فلم ير له طريقا غير حكم الشريعة، ولم يرجع إلى عادة جارية فى أيامه، والحب الكامل فى رأيه لايكون إلا بالزواج والمعاشرة فالعزبة ليست من الإسلام فى شىء، والمسألة فى رأيه أيضاً طبية "اتفق رأى العقلاء من الأطباء وغيرهم فى مواضع الأدوية أن شفاء هذا الداء (داء المحبين) فى التقاء الروحين والتصاق البدنين" لهذا نراه وهو من أعظم

(١) ذم الهوى ص / ٣٧٣ .

الفقهاء دراسة للحب - يستشهد بالآيات والأحاديث التى تحث على الزواج كقوله (ص) "لم ير للمتحابين مثل النكاح"(١) .

وقد عرض لدواعى المحبة وأسباب الحب الدائم - فى ضوء الشريعة الإسلامية - فحصرها فى **أمور ثلاثة** : متى قويت قويت المحبة ، وهى : جمال المحبوب ، وشعور المحب به، والمناسبة بينهما "فمتى كان المحبوب فى غاية الجمال وشعور المحب بجماله أتم شعور، والمناسبة بين الروحين قوية فذلك الحب الدائم" .

العامل الأول وهو الجمال : ودرجة الجمال إنما تختلف بالنسبة لشعور المحب به : "فقد يكون الجمال فى نفسه ناقصاً لكنه فى عين المحب كامل" "فحبك الشىء يعم ويصم" !

ويذكر أن "عزة" مَحبوبة كثير دخلت على الحجاج فقال لها : ياعز والله ماأنت كما قال فيك كثير، فقالت : أيها الأمير، إنه لم يرنى بالعين التى رأيتنى بها .

ثانياً : وقد يكون الجمال موفوراً لكنه ناقص الشعور به، ولو كشف عنه لأسَرَ قلب المحب، لهذا شرع للخاطب أن ينظر إلى المحبوبه، قال (ص) : "إذا أراد أحدكم خطبة امرأة، فلينظر إلى مايدعوه إلى نكاحها، فإنه أحرى أن يؤدم بينهما"(٢)

والعامل الثالث : هو الربط بين الارتياح إلى الشكل الخارجى بالتناسب، أى (المشاكلة) بينهما "فإن شبه الشىء ينجذب إليه بالطبع، فتكون الروحان متشاكلتين فى أصل الخلقة فتنجذب كل منهما إلى الأخرى بالطبع، وقد يقع الانجذاب والميل بالخاصية، وهذا لايعلل ولايعرف سببه كانجذاب الحديد إلى الحجر المغناطيسى، ووقوعه بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات، وهذا الذى حمل بعض الناس على قولهم : "إن العشق لايقف على الحسن والجمال، ولايلزم من عدمه عدمه وإنما هو تشاكل النفوس وتمازجها فى الطباع المخلوقة كما قيل :

---

(١) راجع مقدمة روضة المحبين، وص / ٥٥ ، ٢١٢ ط دار الصفا بمصر .

(٢) روضة المحبين ص ٦٦ - ٦٧ .

ومالحب من حسن ولامن ملاحة ولكنّه شيءٌ به الروحُ تكلَفُ[1]

وابن القيم تابع "لابن داود" فى معنى **المشاكلة** متأثر به فى تلك اللمحة الكريمة : "فإذا كانت المحبة بسبب المشاكلة ثبتت وتمكنت .. وإذا لم تكن بالمشاكلة أى لغرض من الأغراض تزول عند انقضائه"[2] .

ويقف "ابن القيم" على فضيلة (الجمال وميل النفوس إليه على كل حال) فيقسم الجمال قسمين : ظاهر وباطن ، فالباطن هو : جمال العقل والعلم والجود والعفة.. وهو محبوب لذاته .. وظاهر وهو : ماخص الله به بعض الصور عن بعض وهى من زيادة الخلق "يزيد فى الخلق مايشاء" .

ثم يقول : وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده ، فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً على عبده، فإن شكره بتقواه وصيانته ازداد جمالاً على جماله، وإن استعمل جماله فى معاصيه سبحانه قلبه له شيئاً ظاهراً فى الدنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وحشة وقبحاً وشيباً..[3]

ثم يقول : ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس، معظما فى القلوب، لم يبعث الله نبياً إلا جميل الصورة، حسن الوجه .. وكان النبى (ص) أجمل خلق الله وأحسنهم وجها، كما قال البراء بن عازب - رضى الله عنه - وقد سئل : أكان وجه رسول الله (ص) مثل السيف ؟ قال : بل مثل القمر .[4]

ولايخلو "ابن القيم" الفقيه من نزعة صوفية وهو يعرض (لعلامات الحب) حين يشفعها بخواطره الإيمانية من ذلك: أن من علامات المحب : إغضاؤه عند نظر محبوبه

---

(١) روضة المحبين ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) المرجع نفسه ص / ٧٠ .

(٣، ٤) روضة المحبين ص ٢٢١ ومابعدها .

إليه، ورميه بطرفه نحو الأرض من مهابته له وحيائه منه، وعظمته فى صدره، لهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يحد النظر إليهم، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض، قال تعالى مخبراً عن كمال أدب رسوله .. "مازاغ البصر وماطغى"(١) وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يميناً ولاشمالاً، ولاطمح متجاوزا إلى ماهو رائيه .. ولهذا اشتد نهى النبى (ص) للمصلى أن يزيغ بصره إلى السماء .

ومن علامات المحبة : كثرة ذكر المحبوب واللهج بذكره فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه ولذلك أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الأحوال فقال : "ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون"(٢) فعلامة المحبة الصادقة ذكر المحبوب فى الرغب والرهب قال بعض المحبين فى محبوبه:

يذكرنيك الخيرُ والشرُّ والذى أخاف وأرجو والذى أتوقع(٣)

ويعرض ابن القيم للحب فى القرآن والسنة من خلال" **مناظرة طريفة**" بين (من مدح الحب وتمناه ومن ذمه وتبرم به) عقد لذلك ثلاثة أبواب :

الباب الرابع عشر : فيمن مدح العشق واحتج له من الكتاب والسنة والمأثور .

والباب الخامس عشر : فيمن ذمه واحتج لرأيه بالكتاب والسنه والمأثور .

والباب السادس عشر : لفصل النزاع والتوفيق بينهما على ضوء من الشريعة الإسلامية .

وهو فى كل حال يدعو إلى العفة وغض البصر وحفظ الفرج "إن فصل الخُطاب هو أن الاتصال الجنسى الحرام يفسد الحب، ولابد أن تنتهى المحبة بينهما إلى المعاداة

---

(١) سورة النجم آية / ١٧ .

(٢) سورة الأنفال آية / ٤٦ .

(٣) روضة المحبين ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

والتباغض، أما الاتصال المباح فإنه يزيد الحب إذا صادف مراد المحبوب، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبة أخرى لم تكن حاصلة قبل الذوق" .

ولما كانت الشهوة غالبة توجب مايوجب التوبة كرر سبحانه ذكر التوبة مرتين فأخبر أن متبعى الشهوات يريدون من عباده أن يميلوا ميلاً عظيماً "والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما"(١) .

وتبقى قصة يوسف - عليه السلام - القاسم المشترك لمن يتحدث عن العفة، والجدير بالذكر : أن الحب فى القرآن الكريم لم يأت وصفاً للعلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة إلا فى هذا الموضع، وماعداه فقد ورد فيه الحب لمجرد الميل، والميل أنواع كثيرة.

وقد تميزت قصة "يوسف" بتكوينها الفنى والدينى معاً بما حوته من عناصر التشويق والإثارة وتعدد الأزمات، ورسم الشخصيات، وطريقة الحل، وعظة الختام .

كان يوسف (شاباً) والشباب مركب الشهوة (عزباً) والعزب محتاج لما يعوضه (غريباً) والغريب لايستحى من العيب عادة (مملوكاً) والعبد لايأنف مما يأنف منه الحر، وقد دعته امرأة (ذات منصب وجمال) فهى (الداعى) وهى هنا أقوى من المدعو، وهى (الطالبة) فزالت بطلبها كلفة تعرضه وخوفه من مظنة سوء العاقبة، وكانت فى (محل سلطانها وبيتها) بحيث تعرف وقت الإمكان والمكان الذى لاتناله العيون، وزادت بذلك (تغليق الأبواب) لتأمن المفاجأة .. ورغم كل الحيثيات الدقيقة ومافيها من ترغيب وترهيب يعفّ ويرفض خوفاً من الله تعالى .!

فيتهم ظلماً ثم يعاقب، فيصبر حتى تظهر براءته، فينال ثواب الصابر العف الأمين .

(١) روضة المحبين ص ٢٠٣ والآية / ٢٨ سورة النساء .

وقد عرض ابن القيم لقصة "يوسف" فى أكثر من موضع[١] لمكانتها فى الدعوة للعفة ومن منطلق العفة يورد كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تأمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر مفسراً معنى "النظرة الأولى" التى لايعاقب عليها المؤمن ألا وهى نظرة الفجأة التى لاتعمد فيها فإذا تعمد الثانية اثم. ثم يذكر عشر فوائد لغض البصر نوجزها فيما يلى :

أولاً : فى غض البصر : تخليص القلب من ألم الحسرة .. فالنظرة بمنزلة الشرارة ترمى فى هشيم يابس إن لم تحرقه كله أحرقت بعضه ، كما قيل :

كل الحوادث مبداها من النظــر ومعظم النار من مستصغر الشرر

ثانياً : غض البصر : يورث القلب نوراً يظهر فى العين والوجه والجوارح، لهذا - والله أعلم - ذكر سبحانه آية النور : "الله نور السموات والأرض" عقيب قوله تعالى : "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .. الآية"

ثالثاً : هو يورث صحة الفراسة ، فهى ثمرته .

رابعاً : هو يفتح طريق العلم ويسهل أسبابه، .

خامساً : هو يورث قوة القلب وثباته فيجمع المرء بين سلطان البصيرة والحجة.

سادساً : هو يورث القلب سروراً وانشراحاً أعظم من اللذة والسرور الحاصلين بالنظر، فلذة العفة أعظم من لذة الذنب .

سابعاً : هو يخلص من أسر الشهوة التى تمكن منه عدوه ليسومه السوء .

ثامناً : هو يسد عنه باباً لاتقف منه نفسه عند غاية، فلذتها فى الشىء الجديد، وصاحب الطارف لايقنعه التليد، فهو باب عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه .

---

(١) المرجع نفسه ص٣١٨ ، ٤٤٥ .

تاسعاً : هو يقوى العقل ويثبته، فإن إرسال البصر لايحصل إلا من خفة العقل وطيشه .

وأعقل الناس من لم يرتكب سبباً ... حتى يفكر ماتجنى عواقبه

عاشراً : يخلص القلب من استحكام الغفلة، فالنظرة كأس من خمر، وسكرة العشق أقوى وأعظم. (١)

وابن القيم أحد الفقهاء الذين أزعجهم التغيير الواضح فى السلوك الاجتماعى وماأصبح يتسم به من حرية تقترب من الإباحية نتيجة للترف المتصاعد والاختلاط المتزايد، وتراخى يد السلطة، وضعف الوازع الدينى، كما حدث فى بعض مراحل العصر العباسى، وقد ظهر صدى ذلك مثلاً فى بعض الأسئلة التى وجهت للفقهاء وراح الشعراء ينظمون السؤال والجواب فى عبارات غزلية رقيقة يسهل انتشارها، وقد يكون السؤال للمفاكهة، وقد يأتى الجواب مجارياً للسؤال، كسؤال ابن الرومى الشاعر لابن داود : (٢)

يابن داود يافقيه العراق ... أفتنا فى قواتل الأحداق

هل عليهن فى الجروح قصاص ... أم مباح لها دم العشاق ؟

فأجاب ابن داود بروح الفقيه الفنان :

كيف يفتيكم قتيلٌ صريع ... بسهام الفراق والاشتياق

وقتيل التلاق أحسن حالا ... عند داود من قتيل الفراق !

كما وردت الإجابة فى "مصارع العشاق" على هذا النحو : (٣)

---

(١) راجع روضة المحبين ص ٩٥ - ١٠٥ .

(٢) الزهرة لابن داود ص ٨ وتاريخ بغداد جـ٥ / ٢٥٧ والمحمدون من الشعراء ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) مصارع العشاق جـ٢ / ١١٩ .

عنـــدى جواب مسائل العشـــاق فاسمعـه من قَلقِ الحشا مشتاق
لما سألت عن الهوى أهل الهـوى أجريتِ دمعـاً لم يكن بالراقـى
أخطأتَ فى نفس السؤال وان تُصب بك فى الهوى شفقاً من الإشفـاقِ
لو أن معشوقـاً يعذّب عاشقـاً كـان المعـذب أنعـمَ العـشاقِ

ويعقد ابن القيم باب "الشبه التى احتج بها من أباح النظر" فيورد آراء الذين يرون النظر مباحاً محتجين بأن رؤية الجمال البديع تنطق ألسنة الناظرين بقولهم : "سبحان الله" و "تبارك الله أحسن الخالقين" والله تعالى لم يخلق هذا الجمال عبثاً، وإنما أظهره ليستدل الناظر إليه على قدرة الله وبديع صنعه .!

ويتقصى ابن القيم تلك الأسئلة التى وجهت إلى الأئمة - وقد سبق ذكر طرف منه عند الحديث عن الإمام الشافعى - كما أورد ماوجه إلى الإمام مالك وابن حنبل وأبى حنيفه وسعد بن المسيب، وأبى جعفر الطحاوى .

من ذلك سؤال ابن زهير المصرى : [١]

سألت إمام الناس نجل ابن حنبـل عن الضمّ والتقبيل هل فيه من باس؟
فقال : إذا جلّ العزاء فواجـب لأنـك قد أحببت عبدا من الناس

وسؤال ابن مرخيه لأبى حنيفة :

كتبت إلى النعمان يوماً رسالةً نسائلـه عـن لثـم حـبٍ ممنّـع
فقـال لنا لاإثم فيه وإنـــه شهـىٌ إذا كانت لعشـر وأربـع

وقد أجاب ابن القيم على مثل هذا بالتكذيب تارةً، وبما يتفق مع روح الإسلام تارة أخرى، كقولـه رداً على جواب "أبى حنيفة" "لو صحّ .. فإنه قال : لاإثم فيه إذا

---

(١) روضة المحبين ص١١٦ .

(٢) المجع نفسه ص١٢٨ .

كانت لعشر وأربع، ولم يقل : إذا كانت اجنبية، ونحن نقول بما قال أبو حنيفة .. إذا كان المعشوق حلالا" (١) .

وتتطور "قضية الحب" من كونها سلوك اجتماعى إلى قضايا كلامية :

هل الحب قدر أم اختيار ..؟ ويعقد ابن القيم لهذه القضية الغيبية بابا يعرض فيه حجج الفريقين ثم يوفق بينهما مشيراً إلى أن : مبادىء العشق وأسبابه (اختيارية) فهى داخلة تحت التكليف، فالنظر والتفكير أمر اختيارى، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها (غير اختيارى) كما قيل :

تولع بالعشق حتى عشق	فلما استقل به لم يطق
تمنى الإقالة من ذنبه	فلم يستطعها ولم يستطق

فهو بمنزلة السكر من الخمر : تناوله اختيارى، ومايتولد عنه من السكر اضطرارى. وإذا حصل العشق بسبب غير محظور لم يلم عليه صاحبه. كمن يعشق امرأته أو جاريته بعد فراقها، كما تقدم فى قصة بريرة ومغيث .

وكمن نظر فجأة ثم صرف بصره وقد تمكن العشق من قلبه دون اختياره، لايلام بعد بذل الجهد فى دفعه .

ويشير ابن القيم إلى أن سكر العشق أعظم من سكر الخمر كما فى قوله تعالى عن عشاق قوم لوط : "لعمرك انهم لفى سكرة يعمهون" .

وإذا كان أدنى السكرين لايعذر صاحبه إذا تعاطى أسبابه، فكيف يعذر صاحب السكر الأقوى مع تعاطفى أسبابه؟ (٢) .

وقال يحيى ابن معاذ الواعظ الصوفى ت (٢٥٨ هـ) : "لو كان إلى من الأمر شىء ماعذبت العشاق، لأن ذنوبهم ذنوب اضطرار لاذنوب اختيار (٣) .

---

(١) المرجع نفسه ص١٢٨ .
(٢) روضة المحبين ص ١٤٧ - ١٤٨ بتصرف والآية ٧٢ سورة الحجر .
(٣) مصارع العشاق جـ١ / ٦ .

هكذا تتوسع قضية الحب حتى تمتزج بقضية الإرادة، متجاوزة قضية العفة إلى مايمسّ الوجود الإنسانى فى صميمه، وإلى مابعد الوجود حيث حساب العشاق .. ولعل هذا التطور الكلامى الغيبى كان صدى لآراء الجاحظ - المعتزلى المذهب - فهو صاحب المحاولة الأولى فى تحليل الحب والمعتزلة : يهرعون بعقليتهم المتحررة إلى الإفادة من الثقافات الأجنبية والتوفيق بينهما وبين عقيدتهم الإسلامية، وهم لايتحرجون من التوغل فى أى قضية تتناول الفكر أو الحياة.[١]

وأخيراً : حسب ابن القيم - وهو من أعلام المذهب الحنبلى - تلك الجهود التى تمثل رؤية مستقلة عن كل ماسبقها تقريباً عند فقهاء المذهب الظاهرى ولاسيما "ابن داود وابن حزم" وقد كان لهما فضل الريادة، حيث اهتم الأول برصد الواقع الأدبى، واهتم الآخر برصد الواقع السلوكى، بينما اهتم فقهاء الحنابله - ابن الجوزى وابن القيم وغيرها - بقضايا الشرع المتعلقة بالحب كالنظر والسماع، ومانسب إلى الأنبياء والصالحين . واستطاع ابن القيم - بصفة خاصة - أن يقيم صرحاً نظرياً متسقاً، وتوصل إلى مذهب إسلامى عن العشق، ودون أن نرمى إلى مجاراة بعض الباحثين فى تشقيق "النظرية العربية" إلى آراء ظاهرية وآراء حنبلية، فإننا نرى أن الظاهريين : "ابن داود وابن حزم" قد سبقا بأطيب جوانب النظرية من حيث هى فكر تأملى فى المحبوب يلتزم بآداب إنكار الذات، ومن حيث هى سلوك يرقى بصاحبه إلى أن يلتقى سروره عبر سرور محبوبه . لقد أقر الجميع مبدأ "المشاكلة"[٢]

ونكتفى بهذا القدر آملين العودة فى بحث آخر لعدد آخر من الفقهاء الذين استكملوا تلك العاطفة البشرية عبر عصورهم .

---

(١) راجع الحب فى التراث العربى ص٦١ ، ٦٢ .

(٢) راجع الحب فى التراث العربى ص ٣٦٠ ، ٣٦٢ .

«خاتمــه»

هذا البحث يمثل دائرة معارف متواضعه تضم عدداً كبيراً من الفقهاء والمؤلفات الإسلامية التى عرضت للحب ومايتعلق به .

والحق / أن البحث فى حقيقة الحب، شغل مكاناً بارزاً فى كثير من الدراسات، بل قد يجمع البحث بين أكثر من تعريف، والعجيب أنك لاتجد بينها تناقضاً.! وهذا يعنى أن الحب : ظاهرة عامة، تنطوى على مشاعر وغرائز فطرية أو مكتسبة، تحوطها إثارات عاطفية وتصورات مصاحبة تتأثر بطبائع المجتمع وعقائده المتوارثة، وتحتاج دائماً إلى التوجيه .

ولانبالغ إذا قلنا : إن الحب : قيمة كبرى - بكل ماتحويه القيمة من معنى - تلقتها البشرية لتعيش به، ولتحل مشكلاتها به، ويوم تشكك الناس فى حبهم حلت المشكلات .!

والجدير بالذكر : أن عاطفة الحب إذا بدأت بداية طبيعية بالاستحسان ثم ارتقت فى مراتبها واحدة تلو الأخرى - تمكن الحب فى القلب ورسخ وأصبح عسيراً على الزوال، عزيزاً على التغيير والاستبدال - كما أشار ابن داود - فأنا مع من يرى أن الحب ليس انفعالاً[(١)] بل هو عاطفة ثابته مستقرة، لا تعصف بها النزوات، وهو على حد التعبير السيكولوچى "نظام مرتب من الانفعالات الصادرة عن دوافع حيوية فيه استقرار وفيه ثبات وفيه ضبط للنفس .. ولست أنكر أن هذه قيود ثقيلة قد تسخر منها نفوس القرن العشرين، ولكنها ليست لحسن الحظ من صنع المثالية الفلسفية فى القرون الأولى ، وإنما هى نتائج لأبحاث ودراسات معاصرة"[(٢)] .

---

(١) أوضحت ذلك ص ٣٧ - ٣٨ .

(١) د / الجوارى ص ٢٥ - ٢٦ .

وليس ثمة مانع أن يتطور الحب الأرضى - القائم على الغريزة والشهوة إلى حب سماوى عذرى يعلو على الغريزة، ويسمو على الشهوة، فابن حزم قد أحب (نعم) وسجل معها خطرات المحب العاشق ثم ماتت فبكاها بكاءً حاراً، صدّه عن تدوين علاقاته مع أخريات بعدها - وهذا من سمات الحب العذرى .

وليس عجيباً أن يكون الفقهاء أسبق الناس لدراسة الحب، على أنه نوع من دراستهم للعلاقات الاجتماعية ، والمعاملات البشرية ، ومايترتب عليها من حلال مباح، أو محظور محرّم، تبعاً لاختلاف الجنسين، كما كانت دراسة بعض الفقهاء للحب: بمثابة عقد الصلح بين العقل والهوى، وإذا تم الصلح بينهما قوى إيمان العبد واستقام .

والفقهاء فى حبهم أو بكتاباتهم فى الحب : قد أرشدوا إلى معنى "الحب الصادق" الذى لايمكن أن يكون نزوة أو متعة ، وإنما هو سلوك ، أو خروج من عزلة أليمة، وتحطيم للأنانية.!

وقد قرّر الفقهاء : أن التوحّد فى الحب : دليل الصدق والعذرية، فلن يجد الرجل سعادته إلا فى حب امرأة واحدة حباً صادقاً ، لايزيد بالبر، ولاينقص بالجفاء.! ولله درُّ القائل :

فلا تحسبى أنّى تبدلتُ خلّة ... سواكِ ولاأنى بغيرك أقنعُ
ولاعن قلىً كان القطيعة بيننا ... ولكنه دَهر يشتت ويجمع

فالحب الحقيقى : ضرب من التوافق الخفى بين مطالب الجسم "الحيوانية" ونوازع الروح ... وهذا هو السبب فى أننا نجد فى الحب الحقيقى الصادق عوامل المعرفة والاحترام والرعاية والمسئولية قائمة كلها جنباً إلى جنب. (١)

---

(١) مشكلة الحب ص ٣١٦ .

على أن أهم سمات الحب عند الفقهاء : هو التحفظ الذى يقتضيه وقار الفقيه العالم، كما يتميز بالعفة والحرمان، ونراهم بالعفة يقنعون فى الوصال بما دون القليل، على حدّ قول الفقيه عروة بن أذينة :

حجبتْ تحيَّتها فقلتُ لصاحبى   ماكان أكثرها لنا وأقلَّها !

وهذا مادفع بعضهم إلى اصطناع الأساليب الرمزية والاهتمام بالصفات المعنوية، فصار غزلهم قلما يشبه الغزل الحسىّ الداعى إلى الاستهتار، لذلك رأيت تسمية شعرهم الغزلى (بالشعر الوجدانى) أولى من تسميته (بالغزل والنسيب). وقمت بتحقيق أبيات شعرية متفرقة لاتخفى على القارىء الكريم .

وقد وقف كثير من الفقهاء على معنى (الجمال) وسرّه فى المرأة وهو إنما يكمن بما فيها من إشعاعات ومعانٍ تبعث على الحب، وتختلف باختلاف (رؤية المحب، وإحساسه بالجمال، والتناسب بين المحبين) .

وقد أجمعوا على ضرورة التناسب بينهما أى (المشاكلة) وهى كلمة جامعة تشمل : الموافقة بين النفوس، أو المطابقة فى التركيب، أو تعارف الطبائع، وتداعى الضمائر .. وماإلى ذلك مما أشار إليه الحديث الشريف : "الأرواح جنود مجنده، فما تعارف منها ائتلف، وماتناكر منها اختلف " .

على أن بعض صفات المرأة تحتاج إلى إعادة نظر إذا أصبحت زوجة، فمما يكره مثلاً من أخلاق الرجال : (الجبن والبخل) يستحب فى المرأة "ذلك أن المرأة إذا جَبُنَتْ كفت عن المساوىء خوفاً على نفسها أو عرضها، وإذا بخلت حفظت مال زوجها عن الضياع والإتلاف، فهاتان الصفتان ليستا مرغوبتين لذاتهما، بل لأثرهما فى علاقة المرأة بالرجل وبخاصة حين تكون زوجة" (١).

وهذا يعنى أن بين الرجل وزوجته خيرات مشتركة ومنافع مختلطة، وهما يتعاونان عليها .. وهى أسباب تعمر بها المنازل، فالمرأة تنظر من زوجها تلك الخيرات

---

(١) الحب فى التراث ص ٢٥٦ .

لأنه هو الذى يكتسبها ويحضرها والرجل ينظر من زوجته ضبط تلك الخيرات لأنها هى التى تحفظها وتدبرها لتثمر ولاتضيع، فمتى قصر أحدهما اختلفت المحبة، وحدثت الشكايات. (١)

وقد شغلت (علامات الحب) عدداً من المؤلفات منذ عرض ها "ابن داود" وأفاض "ابن حزم" فيها القول ، إلا أن بعض تلك المؤلفات الموسوعية وغيرها أضافت بعض الصور، واختلفت طرق التعبير عنها حسب الطبائع والأخلاق، والبيئات .

وقد أثير كثير من القضايا التى دارت حول الفقهاء من مثل كثرة محبوبات "عروة بن أذنية" فى شعره، وبعض الفتاوى التى نظمت على ألسنة الشعراء وسبب تأليف "الزهرة" لابن داود ، "والطوق" لابن حزم، وقد عرضت لتلك القضايا بما يتناسب مع وقار هؤلاء الأئمة .

كما عرضت خلاصة مركزة لما قدمته من مؤلفات الفقهاء، تحدد المنهج والهدف والحق : أن جوهر النظرية العربية للحب قد كشف عنها "ابن داود" وقد عالجها مستعيناً بشواهد أدبية له ولغيره، ورمى إلى مثالية الحب فى أغلب الأحيان، بينما قام منهج الرائد الآخر "ابن حزم" على الاستنباط الجيد للعلاقات العاطفية، فقامت فكرة الحب عنده : على التأمل والتجربة الشخصية بين الرجل والمرأة تبلغ تمامها بتمام لقائهما جسدياً وتتأثر بما يحيطهما من ظروف وملابسات .

وبين الحب، وصدحات الطير الهائم مناسبة نرى صداها على ألسنة المحبين، ومن يتصبر برؤية أليفين من الحمام يتبادلان النغمات التى تفيض رقه ودماثة، يتلمس فيها العزاء، كما عبر عن ذلك العاشق العف "قيس بن ذريح" فى قوله :

رب ورقـاء هتـوف فى الضحـى	ذات شجـو صدحـت فى فنـن
ذكـرت إلفـاً ودهـراً سالفـاً	فبكت حزنـاً فهاجـت حزنـى

---

(١) راجع تهذيب الأخلاق لابن مسكوية ص١٥٥ .

فبكائى ربما أرقها — وبكاها ربما أرقنى
غير أنى بالجوى أعرفها — وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

ولعل ابن حزم قد استوحى هذا المعنى حين سمى كتابه "طوق الحمامة" فجاء ملائما وموفقا فى الدلالة عليه . !

وقد حرص بعض أصحاب الموسوعات "كالغزالى" على أن يصل بالحب البشرى إلى الحب الحقيقى وهو الحب الإلهى، وهذا المنهج الصوفى إنما يعنى على وجه العموم : حب الروح والمعانى العقلية الكاملة، والتعلق بالمثل والهيام بمصدر الكمال والجمال، فهو طريق للزهد وسبيل للعزوف عن مغريات النفس وغرائزها .

على أن بعض الفقهاء قد أقرّ حرية المرأة فى حبها ، وحقها المكتسب فيما يمكن أن يحقق هواها الخاص كالرجل سواء بسواء تلمس تلك الديمقراطية العاطفية فى "طوق الحمامة" و "مصارع العشاق" مثلاً ،

وعلى يد ابن القيم : الذى تناول الحب من جميع زواياه - تتطور قضة الحب من كونها سلوك اجتماعى إلى قضايا كلامية غيبية، تمثل صرحاً نظرياً إسلامياً للحب والمحبين .

على أن جميع الفقهاء قد أقروا مبدأ (المشاكلة) كأساس قوى بين الرجل والمرأة.

والجدير بالذكر : أن الحب فى القرآن الكريم لم يأت وصفا للعلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة إلا مرة واحدة فى سياق قصة "يوسف" عليه السلام وامرأة العزيز "قد شغفها حبا" وإنما جاء الحب فى القرآن بمعنى الميل والتعلق .

والميل نوعان : طيب : كحب المؤمنين لله سبحانه "والذين آمنوا أشد حباً لله" والله سبحانه "يحبهم ويحبونه" وميل آخر منحرف : "ومن الناس من يتخذ أنداداً يحبونهم كحب الله" .

والهوى فى القرآن إنما جاء لهذا النوع من الميل المنحرف ! "فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا" ، "ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه" .

هكذا تناول القرآن الكريم الحب والهوى، وقدم بعض القصص لأهداف وعظيه، لكن هذه القصص ظلت محددة بإطارها الدينى المباشر وإن كانت فى الوقت ذاته منطلقا لدراسة السلوك الإنسانى والعواطف البشرية التى تتدرج من البساطة إلى التعقيد، وراحت جهود الفقهاء تقرر : أن الحب ظاهرة كونية تتجاوز الإنسان إلى ماحوله من مخلوقات، نلحظها فيما بين الإنس كما هى بين الجن والكواكب والنجوم، والأفلاك .. فالكون كله يتحرك بالمحبة.![1]

إلا أنه مايميز الإنسان عن الحيوان هو ماالديه من قدرة على التسامى بغرائزه .. فالإنسان هو الذى أوجد من ضرورة تناول الطعام (فن الطهى) ومن الحاجة إلى اللباس (فن الأزياء) كما أبدع من الغريزة (فن الحب) وهكذا تشابكت عوامل الحضارة مع حوافز الجنس، وعملت على تهذيبها وترقيتها[2] .

وبعد : فذلك ماكنا نبغ من نحو تأصيل هدف أسمى وتهذيب الغريزة البشرية .

---

(١) راجع روضة المحبين الفصل الرابع .

(٢) راجع الحب ومذاهبه النفسية والجمالية ص ١٤٣ .

«أهم المراجع»

١ - إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى جـ٣ ، ٤ ط دار المعرفة بيروت .

٢ - أدب الفقهاء . عبد الله كنون ط دار الكتاب اللبنانى . بيروت .

٣ - الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير . الدكتور محمد رجب البيومى ط جامعة الإمام محمد بن سعود بالسعودية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٤ - الأدب الصوفى تاريخياً وفنيا . د / عبد الوارث الحداد . ط١ القاهرة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

٥ - ألوان د / طه حسين ط٥ دار المعارف بمصر .

٦ - الإمام الشافعى . الفقيه الأديب / أحمد بن محمد العربى ط وزارة المعارف السعودية المكتبات المدرسية .

٧ - الأمتاع والمؤانسه لأبى حيان التوحيدى جـ٢ ط بيروت .

٨ - التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق د / زكى مبارك جـ٢ ط بيروت .

٩ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه تحقيق ابن الخطيب الطبعة الأولى القاهرة .

١٠ - الحب العذرى د / أحمد الجوارى ط دار الكتاب العربى بمصر .

١١ - الحب العذرى موسى سليمان ط ٣ .

١٢ - الحب فى التراث العربى د / محمد حسن عبد الله ط عالم المعرفة الكويت/ ١٢/١٩٨٠ .

١٣ - الحب والمحبه الإلهية . محمود محمد الغراب من كلام الشيخ محى الدين بن العربى ط ٣ ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

١٤ - الحب ومذاهبه النفسيه والجمالية من خلال طوق الحمامة لابن حزم د/ محمد الصادق عفيفى ط الأولى ١٩٧٢م مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء المغرب.

١٥ - الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية د / محمى غنيمى هلال ط القاهرة .

١٦ - دراسات عن ابن حزم د / الطاهر أحمد مكى ط دار المعارف بمصر .

١٧ - ديوان الإمام الشافعى شرح نعيم زرزور ط بيروت .

١٨ - ذم الهوى . لأبى الفرج ابن الجوزى تحقيق أحمد عطا ط بيروت .

١٩ - رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء ط بيروت المجلد الثالث .

٢٠ - الرسالة العدد ٦٦٤ فى ١٣٦٥/٤/٢١ هـ ١٩٤٦/٣/٢٥م .

٢١ - الرسالة العدد ٦٦٥ فى ١٣٦٥/٤/٢٨ هـ ١٩٤٦/٤/١ م .

٢٢ - الرسالة العدد ٦٧٨ فى ١٣٦٥/٨/٢ هـ ١٩٤٦/٧/١ م .

٢٣ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزيه تحقيق صابر يوسف ط القاهرة .

٢٤ - زهر الآداب . للحصرى جـ١ المطبعة الرحمانية .

٢٥ - الزهرة . لابن داود تحقيق د / إبراهيم السامرائى ط بيروت الأردن الزرقاء .

٢٦ - شعر عروه بن أذنيه د / يحيى الجبورى ط ٢ الطبعة الثانيه ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م دار العلم الكويت .

٢٧ - الشعر والشعراء جـ١ لابن قتيبه ط دار المعارف بمصر .

٢٨ - الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أميه د / شوقى ضيف ط دار المعارف بمصر .

٢٩ - طوق الحمامه فى الألفه والآلاف لابن حزم الأندلسى تحقيق الدكاتره / نصر فريد، عبد العزيز عزام - محمد فهمى السرجانى طبعة القاهرة .

٣٠ - عيون الأخبار . لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينورى ط دار الكتب المصرية ١٩٦٣ م جـ / ١٠ .

٣١ - الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ١ ، ٢ ، ٩ ط دار الكتب المصرية .

٣٢ - فقهاء المدينة السبعة عبد المنعم عبد الراضى الهاشمى ط بيروت .

٣٣ - فى محاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى جـ٢ الحد الثالث عشر .

٣٤ - فى نظرية الأدب . د / شكرى عزيز الماضى ط بيروت .

٣٥ - المحمدون من الشعراء وأشعارهم على بن يوسف القفطى تحقيق حسن معمرى وحمد الجاسر ط دار اليمامه الرياض السعوديه .

٣٦ - مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى جـ٤ ط بيروت ١٩٧٣ م تحقيق شارك پلا .

٣٧ - مشكلة الحب . د / زكريا إبراهيم - ، دار مصر للطباعة .

٣٨ - مشكلات عواطف الشباب فى الإيمان والحب والشوق الروحى والطموح محمود على قراعه دار مصر للطباعه .

٣٩ - المستطرف من كل فن مستظرف جـ/٢ ط .

٤٠ - مصارع العشاق للشيخ أبى جعفر بن سراج جـ١ ط الأنجلو المصرية ١٣٧٥هـ .

٤١ - مصارع العشاق لابن السراج جـ١ ، ٢ ط بيروت .

٤٢ - الموشى لأبى الطيب بن يحيى الوشاء ط بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥ م .

٤٣ - وحى القلم ، مصطفى صادق الرافعى جـ١ ط دار الكتاب العربى بيروت .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٩٩٠ / ٨٥٣١